ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٩–١٠ ، السنـــــة : ٤٨

رمضان – شوال ١٤٤٥هـ ، مارس – مايو ٢٠٢٤م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- جاء رمضان الخير — التحرير — ٣

كلمة العدد

- صوم رمضان ... روحه وغرضه — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩
- زين لهم سوء عملهم — الدكتور أشرف شعبان أبو أحمد — ١٤

دراسات إسلامية

- نسَاء ذوات عَزائم وهِمَم — الأستاذ علي الجندي — ٢١
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ٢٧
- أحكام الائتلاف في أحكام الاختلاف — الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي — ٣٤
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — الأستاذ أبو عاصم المباركفوري — ٤٦
- نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون — الدكتور مازن المبارك — ٦٠
- الصوم وأثره في حياة المسلم — الأستاذ عاذب أشرف الأعظمي — ٦٩
- شهر القرآن — الشيخ علي البولاقي — ٧٧
- الشيخ العلامة السيد حسين أحمد المدني وروائع من .... — الأستاذ شكيل منصور القاسمي — ٨٣
- سعيد بن المسيب والخليفة عبد الملك بن مروان — الدكتور عبد الرحمن عميرة — ٩٣
- اتخاذ اللباس وستر العورات.. فضيلة إنسانية ودينية — الدكتور حسن عبد الغني أبو غدة — ٩٨
- قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام — الشيخ عبد الفتاح أبو غدة — ١٠٢

إشراقة

- استنفار ولكن .... — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ١١٢

كلمة المحرر

جاء رمضان الخير

ها قد أهلَّ علينا رمضان شهر الخير والبركات وموسم الحسنات وربيع البر وصلة الأرحام، شهر تفيض فيه الرحمات الإلهية؛ شهر تفتح فيه أبواب الجنان، وتغلق أبواب النار، وتصفد فيه الشياطين ومردة الجن، ويستجيب الله تعالى دعاء عباده، ويوفيهم أجورهم من فضله سبحانه. وينادي فيه منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر. وشرَّف الله تعالى هذا الشهر بميزتين هامتين: إنزال القرآن الكريم والصيام. يقول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة:٨٣-١٨٤].

فإذا كان القرآن الكريم روحًا وغذاء للقلوب وشفاءً ورحمةً، كما يقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]. وعن عمر بن الخطاب قال: قال النبيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إن مِنْ عِبادِ الله لأناسًا ما هُمْ بأنبياء، ولا شُهَداء، يَغبِطُهُم الأنبياءُ و الشهداء يَوْمَ القيامة لِمكانهم من الله» قالوا: يا رسولَ الله، تُخبرنا مَنْ هم، قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بروُح الله على غيرِ أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ يتعاطَونها، فواللهِ، إن وجوهَهُمْ لنورٌ، وإنهم لعَلى نُور: لا يخافونَ إذا خافَ الناسُ، ولا يحزنُون إذا حَزِنَ الناسُ» وقرأ هذه الآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] [رواه أبوداود:٣٥٢٧]. وقال الخطابي: قوله: «تحابوا بروح الله» أي: بالقرآن، لأن القلوب تحيا به كما تكون حياة النفوس والأبدان بالأرواح». و«الروح ما به حياة الإنسان، وأطلق الروح مجازًا على القرآن الذي به اهتداء النفوس إلى ما يعود عليه بالخير في حياتهم الأولى وحياتهم الثانية، شبهت هداية عقولهم بعد الضلالة بحلول الروح في الجسد فيصير حيًّا بعد أن كان جثة».

فإذا كان القرآن روحًا وحياةً للقلوب؛ فإن الصيام تزكية للنفس ومطهرة لها، ومغفرة للذنوب والآثام، روى مسلم في صحيحه [برقم:٧٦٠] عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن أبا هريرة، حدثهم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه».

والصيام جنة كجنة أحدكم من القتال، فعن كعب بن عُجرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال لي رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أُعيذك بالله يا كعبَ بن عُجْرَةَ، من أُمراءَ يكونون من بعدي، فمن غشي أبوابَهم فصدَّقهم في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس منِّي ولستُ منه، ولا يردُ عليَّ الحوض، ومن غَشِيَ أبوابهم أو لم يغشَ فلم يصدقهم في كذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم فهوَ منِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عليَّ الحوض، يا كعبَ بنَ عُجرةَ، الصلاةُ برهانٌ، والصومُ جنّةٌ حصينةٌ، والصدقةُ تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ، يا كعبَ بنَ عُجرةَ، إنه لا يدخل الجنة لحمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ، النارُ أولى به، يا كعبَ بنَ عُجرةَ، الناسُ غاديان: فمبتاعٌ نَفْسَه فمُعْتقها، وبائعٌ نَفْسَه فمُوبِقُها» [الترمذي:٦١٤].

والصيام والقرآن يشفعان لصاحبه، فعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «الصيامُ والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه قال: فيشفعان»[مسند أحمد:٦٦٢٦].

اللّهم اجعل القرآن الكريم ربيع القلوب وجلاء الأحزان والهموم والضغائن والأحقاد والوساوس. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة السادسة صباحًا من .../١٤٤٥هـ= /..../٢٠٢٤م).

صوم رمضان ... روحه وغرضه

صوم رمضان أحد أركان الإسلام الخمسة، كما ينص عليه قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان». [صحيح البخاري:٥].

ونزل بوجوبه كتاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية:

«حكم الصيام حكم عظيم من الأحكام التي شرعها الله تعالى للأمة، وهو من العبادات الرامية إلى تزكية النفس ورياضتها، وفي ذلك صلاح حال الأفراد فردًا فردًا؛ إذ منها يتكون المجتمع. وفصلت الجملة عن سابقتها للانتقال إلى غرض آخر، وافتتحت بـ(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) لما في النداء من إظهار العناية بما سيقال بعده.... والصيام - ويقال الصوم - هو في اصطلاح الشرع: اسم لترك جميع الأكل وجميع الشرب، وقربان النساء مدة مقدرة بالشرع بنية الامتثال لأمر الله أو لقصد التقرب بنذر للتقرب إلى الله».

ويقول الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي رحمه في تفسيرها:

«إن الإيمان يقتضي أن تقتلوا لا أهل الإيمان؛ بل نفسكم الموذية، التي تتربص بكم الدوائر ليل نهار، وتحول بينكم وبين ربكم. وهي عدو لكم، وصنو عدوكم اللدود في النفس والمال وهو الشيطان. ومن المثل السائر: النفس والشيطان شقيقان، خلقا معًا. فمن مقتضيات الإيمان أن تقهروا هذا العدو الحقيقي، وأحيوا الروح، وهي أمر عندكم من جنس الملائكة. وخير سبيل إلى قهر النفس، وإحياء الروح هو الصبر، وخير طريق إلى الصبر هو صيام أيام معدودات، فالصوم كأنه ترياق وإكسير في قهر القوة الشهوية والغضبية التي ترجع إليها المعاصي كلها... وكتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم، فأمسكوا عن الطعام والشراب والنساء مطلقًا في النهار. وهذا ما كان عليه منذ عهد آدم إلى عيسى عليهما السلام، وإن اختلف الأمر في تعيين الأيام. فكتب على آدم عليه السلام صيام ثلاثة أيام وهي الأيام البيض من كل شهر، وكتب على اليهود صيام يوم عاشوراء والسبت، وصيام أيام معدودات أخرى. وكتب على

النصارى صيام شهر رمضان. وعن معاذ بن جبل وابن مسعود وابن عباس وعطاء والضحاك وقتادة، قالوا: كتب صيام عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر على نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونسخ ذلك بالأمر بصيام رمضان. وعن الحسن البصري: والله، لقد كتب على أمة صيام شهر واحد كما كتب علينا نحن المسلمين. وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: كتب الله تعالى صيام رمضان على الأمم السابقة. رواه ابن أبي حاتم. فوجوب الصيام قديم، لم يخلُ منه شريعة من الشرائع».

والعبادات الإسلامية من صلاة وصوم وحج وزكاة ونحو ذلك- ليست مجردة أفعال و أعمال جافة فارغة من المعاني يحكيها المرء وكفى؛ بل لكل واحدة منها صورة و روح، وكل واحد منهما مطلوب تحقيقه في الشرع الإسلامي. فالصلاة مثلا لها صورة وهي أعمال وأفعال وأقوال يؤدى بها، ولها روح وهي مثلا الخشوع والخضوع وحضور القلب. وتحقيق الفوائد المرجوة على هذه العبادات يتوقف على توفر الصورة والروح معًا، لا الروح وحدها كما ظن بعض الناس، وقالوا: إن الصور الخاصة للأعمال غير مطلوبة؛ فحسبنا تحقيق روحها فمثلا ظنوا أن روح الصلاة هي الذكر، فيجب الذكر ليل نهار بغض النظر عن صورة الصلاة وأعمالها وأفعالها حتى اغتر بعضهم بأنهم في غنى عن أداء الصلوات خمس مرات في اليوم والليلة. فالصورة الظاهرة للصلاة مطلوبة و لاتتحقق إلا بالذكر المقرون بالصلاة. ومن هنا قال رسولُ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «بين العبدِ وبين الكفر تركُ الصلاة» [سنن أبي داود: ٤٦٧٨].

وكذلك الصوم له صورة وروح، وظن بعض الصائمين أن الصوم هو عبارة عن مجرد الإمساك عن الطعام والشراب ونحوهما، ثم لاضير عليه أن يركب المعاصي من الكذب والغيبة و النميمة ونحو ذلك. وهذا خطأ فاحش، وخطل من الرأي.

والهدف الأعظم والأسمى من الصوم، مجاهدة النفس والتغلب على الأهواء والشهوات، وأعظم ما يصدق عليه ذلك هو ترك المعاصي واجتنابها، ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لم يدع قول الزور والعمل به، والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» [صحيح البخاري:٨٨٦]. والمعنى مادام أنه لم يحقق روح الصوم -وهي ترك المعاصي- فأي حاجة إلى صيامه؟ وهذه المجاهدة هي التي يرشدنا إليها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٦]. فحقيقة المجاهدة هي نهي النفس عن الحرام.

ويقول العلامة أشرف علي التهانوي رحمه الله

في شرح مجاهدة النفس، ومخالفتها:

«اعلم أن مخالفة النفس ومجاهدتها على ثلاث درجات:

١. مخالفتها في المعاصي.

٢. مخالفتها في الحظوظ.

٣. مخالفتها في الحقوق.

ومخالفة النفس في المعاصي واجبة، ومخالفتها في الحقوق معصية، وأما مخالفتها في الحظوظ ففيها تفصيل. فترك الحظوظ مطلقا مذموم، والإقلال منها أولى. فإن ترك الحظوظ بالكلية قد يبعث الضجر والضيق، فتتخلى النفس عن الأعمال كلها. وإنما يجب سلوك الطريق الوسط. وفي المنع عن ترك الحظوظ كلية سر آخر، وهو أنه يبعث الحب مع الله تعالى. فمثلًا حين تشرب الماء الحار، فإن لسانك ينطلق بالحمد لله على غير نشاط، وأما إذا شربت الماء البارد؛ فإنه يبعث الراحة والطمأنينة في النفس، ويخرج التحميد من كل شعرة في جسدك».

فالصائم عليه أن يحفظ عينه ويده ولسانه ورجله كلها من معصية الله تعالى، فإن الشرع الإسلامي حرم في الصوم ما كان مباحا قبله، فلأن يجب ترك ما كان حرامًا من قبل أولى في الصوم. وأي فائدة من الصيام لمن لم يجتنب المعاصي.

وكم من صائم يمسك عن المفطرات الظاهرة، ثم يلِغ فيما ينقص صومه أو يبطله، وإليه يشير الحديث النبوي، الذي يرويه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر» [مسند أحمد:٩٦٨٥].

ويقول العلامة التهانوي -رَحِمَهُ اللَّهُ- وهو يتحدث عما ينافي الصوم وينقص أجره أو يحبطه:

«ومن الناس من يقلل من العلاقات الدنيوية في الصيام ثم يتسلى عن الصوم وعن مشقاته بلعب الشطرنج، والغيبة، والنظر الحرام، وقراءة الروايات الماجنة، فاعلموا أن هذه الأفعال كلها سم زعاف، فلاتحقروها، ولاتستهينوا بها؛ فإن الجمرة الواحدة فيها كفاية للنفخة فيها، وهذه الأفعال وإن كان ظاهرها هينًا، ولكنها في الواقع بالغة الخطورة. وأبسط ما يمكن القول أن الشطرنج يورث الغفلة، وهي أم الأمراض والأدواء كلها. فمثلا من الأمراض الظاهرة الزكام هلاسألت الأطباء عنه، فإنك إذا غفلت عن علاجه ودوائه غفلةً يسيرة عاد سببًا إلى أمراض لاتحصى ولاتعد. كذلك قراءة الروايات الماجنة تشغل صاحبها عما سواه شغلاً لايدع شيئًا ينفذ إلى قلبه غيرها (خطبات حكيم الأمة١٠/١٠٥).

ويضيف قائلا:

«والحق أنكم في غنى عن التسلية عن الصوم؛ فإن الصوم بدوره تسلية وعزاء، فإن كان لابد من شيء يسلي عن الصوم، فإن ذكر الله تعالى خير عزاء وتسلية، فاذكروا ربكم، واتلوا القرآن الكريم،

وصلوا، فإن الصلاة خير عزاء وتسلية. فقد ورد أن اليهود قالوا: لما فرغ الله تعالى من خلق السماوات والأرض، استراح. فحزن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا على وقاحتهم هذه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٦]. وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصبر على قولهم، وأنى الصبر على مثل هذا الكلام الفظيع، فأرشد إلى ذلك بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]. والمراد بالتسبيح هنا الصلاة (نفس المصدر ١٦/١٦١).

وكم من صائم يتخلف عن أعماله ومسؤوليته ووظيفته في الدنيا لينصرف إلى المحرمات، ولعل من أهم المحرمات التي يفقد معها الصوم الاعتبار والوزن في ميزان الشرع هو الغيبة.

قال ابن رجب في لطائف المعارف (١/١٥٦): «وفي مسند الإمام أحمد أن امرأتين صامتا في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكادتا أن تموتا من العطش، فذكر ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعرض ثم ذكرتا له فدعاهما فأمرهما أن تتقيآ فقاءتا ملءَ قدح قيحًا ودمًا و صديدًا ولحمًا عبيطًا، فقال النبي ﷺ: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، و أفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى، فجعلتا تأكلان في لحوم الناس».

ولهذا المعنى- والله أعلم- ورد في القرآن بعد ذكر تحريم الطعام والشراب على الصائم بالنهار ذكرُ تحريم أكل أموال الناس بالباطل؛ فإن تحريم هذا عامٌّ لكل زمان ومكان بخلاف الطعام و الشراب، فكان إشارة إلى أن من امتثل أمر الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه، فليمتثل أمره في اجتناب أكل الأموال بالباطل؛ فإنه محرم بكل حال لا يباح في وقت من الأوقات».

وقال رحمه الله:

«واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم و أموالهم وأعراضهم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» خرجه البخاري. وفي حديث آخر: «ليس الصيام من الطعام والشراب إنما الصيام من اللغو والرفث»، وقال الحافظ أبو موسى المديني: على شرط مسلم. قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام» (نفس المصدر ١/١٥٥)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: إذا صمت فليصم سمعك، وبصرك، ولسانك عن الكذب والمأثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار، وسكينة يوم صيامك، ولا تجعل يوم فطرك ويوم صومك سواء. وعن طليق بن قيس قال: قال

أبو ذر: إذا صمت فتحفظ ما استطعت، فكان طليق إذا كان يوم صيامه دخل فلم يخرج إلا إلى صلاة».

وقال بعضهم:

إذا لم يكن في السمع مني تصاون

وفي بصري غض، وفي منطقي صمت

فحظي إذًا من صومي الجوع والظمأ

فإن قلت: إني صمت يومي صمت

قال الإمام الغزالي في الإحياء(١/ ٢٣٥) وهو يشرح مقصود الصوم وسره وروحه:

«ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى، وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات، وأشبعت زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها، فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل، وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلا، فلم ينتفع بصومه؛ بل من الآداب أن لايكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش، ويستشعر ضعف القوى، فيصفو عند ذلك قلبه، ويستديم في كل ليلة قدرًا من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده، فعسى الشيطان أن لايحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء».

وقال ابن عاشور (التحرير والتنوير٢/ ١٦٠): «وإذ قد كان من المتعذر على الهيكل البشري بما هو مستودع حياة حيوانية أن يتجرد عن حيوانيته، فمن المتعذر عليه الانقطاع البات عن إمداد حيوانيته بمطلوباتها، فكان من اللازم لتطلب ارتقاء نفسه أن يتدرج به في الدرجات الممكنة من تهذيب حيوانيته وتخليصه من التوغل فيها بقدر الإمكان، لذلك كان الصوم أهم مقدمات هذا الغرض؛ لأن فيه خصلتين عظيمتين هما الاقتصاد في إمداد القوى الحيوانية، وتعود الصبر بردها عن دواعيها، وإذ قد كان البلوغ إلى الحد الأتم من ذلك متعذرا كما علمت، حاول أساطين الحكمة النفسانية الإقلال منه، فمنهم من عالج الإقلال بنقص الكميات وهذا صوم الحكماء، ومنهم من حاوله من جانب نقص أوقات التمتع بها، وهذا صوم الأديان، وهو أبلغ إلى القصد، وأظهر في ملكة الصبر، وبذلك يحصل للإنسان دربة على ترك شهواته، فيتأهل للتخلق بالكمال؛ فإن الحائل بينه وبين الكمالات و الفضائل هو ضعف التحمل للانصراف عن هواه وشهواته:

إذا المرء لم يترك طعاما يحبه

ولم ينه قلبًا غاويًا حيث يمما

فيوشك أن تلقى له الدهر سبة

إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

* * *

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

أي في اللوح المحفوظ. وما يكون في اللوح المحفوظ فهو في علم الله مسبقًا. فحاصل معنى الآية: لايخرج شيء في عالم الغيب يابس أو رطب، صغير أو كبير من علم الله تعالى الأزلي المحيط، وبناءً عليه هو الله تعالى على علمٍ تامٍّ بأحوال هؤلاء الظلمة الظاهرة والباطنة، والوقت والمحل المناسبين لعقوبتهم.

تنبيه:

من قال من أهل العلم: إن «مفاتيح» جمع مَفتَح، حملوها على خزائن الغيب، ومن قال: إنه جمع مِفتح -بكسر الميم- حملوها على مفاتح الغيب كما حمله المترجم رحمه الله. والمعنى: أن خزائن الغيب ومفاتحه بيد الله تعالى وحده. فيفتح هو ما شاء من خزائنه وبالقدر الذي يشاء، ولايسع أحدًا أن يتوصل بحاسته وعقله وغيرهما من آلات الإدراك إلى علوم الغيب، أو يزيد من عند نفسه على ما كشِفَ له من الغيوب، فإنه لايملك مفاتيح علوم الغيب. وإن أُطلع بعض البشر على مئات الآلاف والملايين من الأحداث الجزئية الغيبية؛ غير أن مبادئ الغيب وكلياته – التي يطلق عليها مفاتيح الغيب-قد استأثر الله تعالى بها دون غيره.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

أي لايبقى الشعور والإحساس الظاهر حين النوم في الليل، ويغفل المرء عما حوله؛ بل عن أحوال جسده. فكأن هذه القوى تُسلَب حينئذ.

فائدة:

أي ما يقع في النهار من التنقل والمشي

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

والكسب والاكتساب في علم الله تعالى بكامل تفاصيله.

فائدة:

أي لو شاء لترككم نائمين، ولكن يوقظكم بعد كل نوم حتى يأتي الأجل المسمى للموت.

فائدة:

أي هذا الأمر من الاشتغال في الأعمال في النهار ثم النوم في الليل، ثم الاستيقاظ منه نموذج صغير للحياة الدنيوية ثم الموت ثم البعث. ولذا نبه على قضية المعاد مقرونا بذكر النوم والاستيقاظ.

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

أي الملائكة المكلفون بحفظكم وحفظ أعمالكم.

فائدة:

الملائكة المرسلون لنزع الأرواح.

فائدة:

أي لايراعون ولا يقصرون في التوفي في الوقت والوجه المأمور بهما.

ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

أي يوضح ما عمله المرء طوال حياته من حسنة وسيئة.

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

أي أن الله تعالى – رغم علمه المحيط وقدرته الكاملة كما سبق ذكره آنفًا- لايعجل لكم العقوبة على أعمالكم السيئة وشروركم؛ بل عندما تتعرضون لظلمات المصائب والشدائد وتنادونه وتتضرعون إليه، وتعِدونه وعدًا مؤكدا أنكم لاتعودون -بعد التخلص منها- إلى فسوقكم، وتقدرون نعمتَه وبرَّه، فربما يأخذ بأيديكم وينجيكم من تلك المهالك وأنواع الشدائد. ثم إنكم لاتوفون بوعدكم، وتبغون عليه إثر التخلص من الشدائد.

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

أي لاتأمنوا نظرا إلى إمهال الله تعالى وعفوه، فإنه كما ينجي من الشدائد والكروب كذلك يقدر على أن يسلط عليكم نوعًا من العذاب.

فائدة:

ذكر فيه ثلاثة أنواع من العذاب:

(١) من فوقكم، مثل رشق الحجارة والعاصفة والمطر.

(٢) من تحت أرجلكم، كالزلزال، والسيل ونحوهما، وهما من العذاب من الخارج، وقد نزلا على الأمم السابقة، وأمَّن الله تعالى هذه الأمة بدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا النوع من العذاب، أي لاينزل هذا النوع من العذاب الذي يستأصل هذه الأمة ويقطع دابرها كما حدث للأمم السابقة. ولايمنع ذلك وقوع الأحداث الجزئية الخاصة. وأما النوع الثالث من العذاب - وأجدر بنا أن نسميه العذاب من الداخل-، فإنه باقٍ في هذه الأمة، وهو التحزب والجدال والمحاربة وسفك الدماء.

وفي «موضح القرآن»: توعد القرآن الكريم الكفار بالعذاب كثيرا، وبين هنا أن من العذاب ما نزل على الأمم السابقة إما من السماء أو من الأرض، ومن الممكن أن يجعل البأس بين رجلين، فيتعرضون للقتل أو الأسر أو الذل والهوان. فظن الشيخ أن هذه الأمة ينزل عليها هذا العذاب، وهذا ما وُصِف في الغالب بـ«العذاب الأليم»، و«العذاب المهين»، و«العذاب الشديد»، و«العذاب العظيم». وأما عذاب الآخرة فلمن مات كافرا.

فائدة:

أي إتيان القرآن أو العذاب، فإنهم كانوا يرونه تهديدات كاذبة، ولاينزل العذاب ونحوه.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

أي ليس من وظيفتي أن أنزل عليكم بتكذيبكم هذا العذاب، أو أفصل لكم موعده أو طبيعته ونحو ذلك، وإنما علي أن أخبركم وأنبهكم. ثم إن وقوع كل شيء له أجل مسمى في علم الله تعالى، فإذا جاء أجله أدركتم صدق ما كنت أحذركم منه.

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

أي لاتخالط إطلاقًا الذين يطعنون في آيات الله تعالى، ويسخرون منها، ويخوضون فيها بالباطل، ويجعلون أنفسهم تستحق العذاب، مخافة أن تدخل في زمرتهم، وتستحق العذاب، كما قال في آية أخرى: (اِنَّكُمْ اِذًا مِّثْلُهُمْ). إن غيرة المؤمن تقتضي أن ينأى بنفسه عن مثل هذه المجالس، و يعتزلها، فإن شارك فيها عن نسيان وغفلة، فليقعد منها على الفور حين يتذكرها، وفيه صلاح عاقبته، وسلامة دينه، ونصح عملي وتنبيه لمن يطعن ويستهزئ.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

يحتمل وجهين: إذا قام المتقون من مجالس المجادلين والطاعنين، فلن يؤاخذوا على ضلال

الطاعنين، ولايضر المتقين ذلك، اللّٰهم إلا أن عليهم أن ينـصحوا ويعظـوا حـسب المقـدور وحـسب المناسبة، لعل هؤلاء الأشقياء يسمعون ويتقون، أو المعنـى: إذا صـادف حـضور المتقـين لمثـل هـذه المجالس لضرر ديني أو دنيوي يعتد به، لم يكن تبعة على هؤلاء لذنوب الطاعنين ولامؤاخذة عليهم في ذلك. وإنما الواجب عليهم أن ينصحوهم حسب المقدور البشري، فربما ينتصحون به يومًا من الأيام.

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠

أي دينهم الذي وجب عليهم قبوله، وهو دين الإسلام.

فائدة:

أي نسوا العاقبة في نشوة من لذات الدنيا.

فائدة:

أي ليس لمن أخذَ بالتكذيب والاستهزاء ولي ينقذهم بقوة من العذاب الإلهي، ولاشفيع يسعى ويشفع لهم فيتخلصون، ولايقبل منه فدية ولا عوض. ولو أن أحدًا من المجرمين قدم ما في الدنيا عوضا وفدية ليتخلص منه لم يتخلص.

فائدة:

أمرت الآية السابقة بالتخلي خاصة عن المجلس الذي يطعنون فيه في آيات الله ويستهزئون بها ويخوضون فيها بالباطل، وفي هذه الآية إرشاد إلى ترك مجالسة ومصاحبة هؤلاء بصفة عامة، مقرونٌ بالأمر بنصحهم، ليتنبهوا على عاقبة أعمالهم.

قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١

أي من شأن المؤمن أن يعظ الضالين، ويسلك الطريق المستقيم، ويفكر في العودة بمن أعرض عن الله تعالى وسجد لغيره إلى السجود لله الواحد تعالى. ومن العبث أن يُرجى منه أنه يسجد لغير الله تعالى، ممن لايملك نفعًا ولا ضرًّا، أو يصاحب أهل الباطل، ويتخلى عن طريق التوحيد والإيمان النزيه، ويرجع على أعقابه إلى متاهات الشرك.

فإن حصل ذلك - والعياذ بالله- فإنما مثله كمثل رجل يسير في غابة مع أصحاب له يعرفون الطريق، إذ أغواه غول الفلاة و الخبيثون من الجن عن الطريق فيتيه فيها، وأصحابه يدعونه رفقًا به ونصحًا له: تعالَ هنا، وهو حيران يخبط خبط

عـشواء، فلايـدرك شـيئا، ولايـستجيب لهـم، فقِـس عليه أن الطريق المستقيم لمسافر الآخرة هو الإسلام والتوحيـد، والـذين تُقطَـع في رفقتهم ومعيتهم هـذه الرحلة هم الأنبياء وأتباعهم.

وحيث إنه وقع في مخالب الشياطين والمضلين، وتـاه في صـحراء الـضلالة، وأصـحابه الهداة يدعونـه رفقًا به إلى جادة الحق، وهو لايسمع ولايعي شيئًا، فيا معشر الأشرار، أ تريدون أن نكون أمثالهم.

ونزلـت هـذه الآيـة ردا عـلى المـشركين الـذين طلبوا من المسلمين التخلي عن الإسلام.

فائدة:

حذارِ أن ترجوا منا أن نعرض عنه إلى الطريق الذي يدلنا عليه الشيطان.

وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

أي ليكن الحشر.

فائدة:

أي لاملك ظاهرا ولامجازا يومئذ إلا لله تعالى: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [غافر:١٦].

فائدة:

الله الـذي يتـصف بـما ذكـر في الآيتـين أو في الآيات الثلاث، هو الذي يليق بأن نطيعه، ونتضرع إليـه ونعبـده، ونتقيـه كـل وقـت، وبـذلك أمرنـا، ولايسعنا الإعراض عنه إطلاقًا.

وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾

جاء في الآيات السابقة إثبات التوحيد، ونفي الشرك والتأييس من ارتداد المسلمين، و القصد هنا تأكيده بـذكر قصة أعظم موحد وهـو إبراهيم عليه الـسلام. وتـضمن ذلـك تفهـيم المـسلمين كيـف ينـصحون المكـذبين والمعانـدين. وكيـف يتـبرؤون منهم، ويعتزلـونهم، وكيف يجب على المؤمن القانت الثقة بالله وحده سبحانه، والخوف منه، والطاعة له؟

فائدة:

ذكـر علـماء الأنـساب أن اسـم أبي إبـراهيم هـو تـارخ، وربـما كـان اسمه تـارخ ولقبه آزر، وذكـر ابـن كثير عـن مجاهـد وغـيره أن آزر اسـم الـصنم، ولعلـه لقِّـب بـآزر لكثـرة خدمتـه لهـذا الـصنم ومكثـه عنـده. والله أعلم.

فائدة:

وهل ضلال أصرح وأوضح من أن يُجِلَّ أكرمُ الخلـق –الإنـسان– الأحجـار التـي نحتهـا بيـده محـل الإله، فيسجد لها، ويطلب منها الحوائج.

* * *

زين لهم سوء عملهم

بقلم: الدكتور/ أشرف شعبان أبو أحمد

هناك من يرون أعمالهم على عكس ما هي عليه، حيث يرون ما يقومون به من شر خيرًا محضًا، ومن جور إنصافًا صرفًا، ومن ضلال هدى خالصًا، ومن سيئة حسنة صريحة؛ بل ويرونها أفضل مما يقوم به غيرهم، وما هم عليه من قوة وثراء وجبروت، لأكبر دليل على ذلك، سواء كانت أعمالهم هذه في مجال العقائد والإيديولوجيات أو في مجال مقتضيات الحياة ومتطلبات المعيشة، وكل ما يعملونه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، وأنهم على شيء من الحق، قال تعالى في سورة المجادلة آية ١٨: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾؛ بل من هؤلاء أيضا من يفسد في الأرض ويسفك فيها الدماء، ويعتقد أنه يفعل الصواب؛ بل ويعتقد بأن ما يقوم به هو من مصاف الأمور العظيمة والمهمة. ويا لها من انتكاسة في العقل والفكر، وزوغان في البصر، أن يظن المبطل أنه محق، والمخطئ أنه مصيب، والضال أنه مهتد، وأن يرى قبيح عمله روائع يجب أن يشدو بها، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٤) نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإنها تنطبق على كل فرد أو جماعة من أبناء أمة الإسلام، أو من غيرها من الأمم، طالما حادوا عن الصواب وانقادوا للشيطان، وأطاعوه فيما يزينه ويحسنه لهم من أعمال وما يسبقها من فكر وعزم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ بل وعلى هدى أيضا، قال تعالى في سورة الأعراف آية ٣٠: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، فليس من كان على بصيرة من ربه، يميز بها بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وبين الرشاد والغي، كمن زين له الشيطان سوء عمله فرأى السيئة حسنة والباطل حقا، واتبع ما تمليه عليه أهواؤه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ (محمد:١٤).

بداية تزيين الشيء يعني: تحسينه وتجميله في عيون من يراه، وما يتبع ذلك من ترغيب النفس فيه وإقبالها عليه، فمن الناس من حسن لهم أعمالهم السيئة فرأوها حسنة، وحببت إليهم، فاستمروا على فعلها، ويرتكبون ما يرتكبونه من قبائح، ظنًّا منهم أنها محاسن، وما هذا إلا لمشيئة الله عز وجل، فهو وحده الذي يضل من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ (فاطر:٨) وقال جل وعلا في سورة النمل آية ٤: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. فالله عز وجل بين لعباده السيئ من الحسن وعرفه لهم، فإن هم اختاروا القبيح وأحبوه ورضوه لأنفسهم، زينه سبحانه وتعالى لهم، وأعماهم عن رؤية قبح أعمالهم، عقوبة لهم. وكل ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحا، فإذا تمادى فيه، ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فرآه حسنا عقوبة له. قال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام:١٠٨) أي زينا لكل أمة عملهم، من الخير والشر، والطاعة والمعصية، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم ويجازيهم بما كانوا يعملون، ولا يمكن لبشر مهما أوتي من الفطنة والذكاء، والعلم والفهم، أن يحيط علما، بحكمة الله تعالى في خلقه وأمره، وقضائه وقدره، ولقصور مدارك البشر، تجدهم يحسبون أعمالهم السيئة حسنة. وعلى الجانب الآخر فقد حبب الله تعالى الإيمان وزينه في قلوب عباده الذين آتاهم رشدهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ (الحجرات:٧).

وللشيطان دور في تزيين الأعمال، قال تعالى في سورة الحجر الآيات ٣٩-٤٢: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحجر:٣٩-٤٢) قال إبليس: لأحسن لهم في الأرض حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وأحبب الشهوات إلى نفوسهم حتى يتبعوها، ولأزين لهم المعاصي والسيئات، وأحسن لهم القبيح، وأجمل لهم المنكر، وأصرفهم عن طاعتك، ولأعملن على إضلالهم إلا عبادك منهم المخلصين، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن إبليس قال يا رب وعزتك

وجلالك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». وهذا إصرار من الشيطان على غوايته للناس أجمعين، إلا عباد الله المخلصين منهم، ويقابله من المولى عز وجل مغفرة لمن تاب وأناب وعاد إلى ربه مستغفرا. وقال عز وجل: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأنعام:٤٣) وقال ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ (الأنفال:٤٨) وقال ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ (النمل:٢٤) وقال تعالى ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ (فاطر:٨) والشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا، إنما سلطانه على الذين يتولونه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ (النحل:٩٩-١٠٠).

والكفر هو أسوأ السوء، وهو مع سوئه مزين لأصحابه، فما أعظمه من ضلال، وما أشده من انحراف واعوجاج، حين يكون أسوأ السوء، وأقبح القبح، وشر الشر، حسنا في نفس صاحبه، قال تعالى في سورة الأنعام آية١٢٢: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ويزين الشيطان أعمالهم لهم، حتى يستحسنوها ويروها حقا، ويصير ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فيرضوا بما هم عليه من الشر والقبح، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ (البقرة:٢١٢) حسن لهم الحياة الدنيا وما فيها من الشهوات والملذات، وما فيها من متع زائلة، وملذات منقطعة، وأحبوها وتهافتوا عليها، تهافت الفراش على النار، وصارت متعها وشهواتها كل تفكيرهم، زينت لهم في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإرادتهم وأعمالهم كلها لها فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموا من شاركهم في صنيعهم، وقال تعالى: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ (الرعد:٣٣) أي زين للكافرين مكرهم وما هم عليه من ضلال وصد عن اتباع طريق الرسل، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأنعام:٤٣) وقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ (النحل:٦٣) لقد أرسلنا رسلا إلى أمم كثيرة من قبلك، واستحوذ الشيطان على نفوس هؤلاء المرسل إليهم، وحسن لهم ما عملوه من

الكفر والتكذيب وعبادة غير الله، وصار وليهم في الدنيا فأطاعوه واتبعوه وتولوه، وجعلهم يقفون من رسلهم موقف المكذبين لأقوالهم، المعرضين عن إرشاداتهم، المحاربين لدعواتهم، وزين لهم أفعالهم السيئة القبيحة وأعمالهم الخبيثة، وكل ما كانوا يعملونه من المعاصي ويأتونه من الشرك، وزعموا أن ما هم عليه هو عين الصواب، وهو الحق المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، وعلى سبيل المثال لا الحصر، زين لقوم إبراهيم عبادة الأصنام ولقوم لوط فعل الفاحشة ولقوم شعيب الغش في الكيل والميزان، ولقوم عاد وثمود ما كانوا عليه، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (العنكبوت:٣٨) وقال تعالى في سورة النمل آية ٢٤ على لسان الهدهد في وصف حال ملكة سبأ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾. وفرعون رمز الطغيان البشري، ومثل لأشد أنواع الكفر، الذي ادعى الربوبية لنفسه، حين قال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، زين له حين عتا وتمرد قبيح عمله فرآه حسنا، وصد عن سبيل الحق، وإيهام الناس أنه محق وموسى مبطل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ (غافر:٣٧). فعاقبه الله وجنوده بالغرق، وجعل بدنه عبرة إلى يوم الدين لمن على شاكلته من البشر. ومن صور تزيين الشيطان للأعمال، ما كان عليه العرب في الجاهلية من تحريم أربعة أشهر من السنة عددا لا تحديدا، بأسماء الأشهر التي حرمها الله، فيؤخرون بعضها أو يقدمونه، ويجعلون مكانه من أشهر الحل ما أرادوا حسب حاجتهم للقتال، وقد وصف القرآن الكريم فعلهم هذا بأنه زيادة في الكفر، يضل به الشيطان الذين كفروا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (التوبة:٣٧) ومن تلك الصور أيضا، قوله عز وجل في سورة الأنفال آية ٤٨: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ أي واذكروا حين حسن الشيطان للمشركين ما جاؤوا له وما هموا به، وقال لهم لن يغلبكم أحد اليوم، فإني ناصركم، فتهيؤوا

لـذلك، ولمـا تقابـل الفريقـان المـشركون ومعهـم الـشيطان، والمـسلمون ومعهـم الملائكـة، نكـص الشيطان على عقبيه مدبرا، وقال للمشركين: إني براء منكم، إني أرى ما لا ترون من الملائكة الذين جاؤوا مـددا للمـسلمين، إني أخـاف الله، فخـذلهم وتـبرأ منهم، وذهـب ما حسنه لهم هباء منثورا. وفي مقام آخر قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُـونَ إِلَىٰٓ أَهْلِـيهِمْ أَبَـدًا وَزُيِّـنَ ذَٰلِـكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ (الفتح:١٢) وزين لهم الشيطان أن لـن ينقلـب الرسـول والمؤمنـون إلى أهلـيهم أبـدا، فقـد توهمـوا أن الرسـول والمـؤمنين سيقتلون على يد أعدائهم، ولـن يعـودوا إلى أهليهم أبـدا، وهـذا الظـن الفاسـد في قلـوبهم وتمكينـه مـن نفوسـهم، جعلهـم يقبعـون في ديـارهم، ويعتـذرون اعتذارا كاذبا بانشغالهم بأموالهم وأهليهم، وتعمدوا الكـذب وتفوهـوا بـالكلام الـذي لا تؤيـده قلـوبهم، وقد ذمهم الله وتوعدهم بسوء المصير لظنهم هذا، وقـال تعـالى فيمن زيـن لهـم الـشيطان قتـل أولادهـم ظلما وعدوانا، وقالوا في قتل البنت خشية العار، وفي قتل الولـد خشية الحاجة والفقر، قـال عز وجل في سورة الأنعام آية ١٣٧: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّـنَ ٱلْمُـشْرِكِينَ قَتْـلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُـمْ لِـيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَـيْهِمْ دِيـنَهُمْ﴾ فنهاهم الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّـنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْـنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام:١٥١).

وفي إخباره عز وجلا عـن طبيعـة الإنـسان إذا مسه ضر، مـن مـرض أو مـصيبة، اجتهـد في الـدعاء، وسـأل الله في جميـع أحوالـه، قـائما قاعـدا مـضطجعا، وحينما يكشف الله عنه الضر، ويدفعه عنه، يستمر في غفلته معرضـا عـن ربه، كأنه لم تنزل بـه كـروب، ومـستثني مـن ذلـك مـن رزقـه الله الهدايـة والـسداد والتوفيق، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَـا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٢) وفي الحديث الشريف «تعـرف إلى الله في الرخـاء يعرفـك في الـشدة». وفي حـديث آخـر «مـن سره أن يـستجيب الله لـه عنـد الـشدائد فليكثـر مـن الـدعاء عنـد الرخـاء». و مـن يحسبون بخلهم ومنعهم ما عندهم، مما آتاهم الله من فضله، من مال وجاه وعلم وغير ذلك، ومما أمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا به وأمسكوه وضـنوا بـه عـلى عبـاد الله، وظنـوا أنـه خـير لهـم؛ بـل الأمـر عـلى عكـس ظـنهم، فهـو شر لهـم في ديـنهم ودنيـاهم وعـاجلهم وآجلهـم، قـال تعـالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (آل عمران:١٨٠).

ولقرناء السوء، بما لديهم من قدرات ووسائل،

والتي من شأنها أن تصد الإنسان عن الطريق المستقيم، وعن طريق الحق والصواب، دور في تزيين أعمال وزخرفة أقوال قرنائهم، قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ (فصلت:٢٥) أي هيأنا لهؤلاء قرناء فاسدين يلازمونهم، فزينوا لهم قبائح أعمالهم. فما بالكم إذ كان هذا القرين هو الشيطان ذاته، فمن يعرض عن ذكر الله، ولم يهتد بهدايته، ولم يخف عقابه، يجعل له شيطانا في الدنيا مصاحبا وملازما له، يغويه فيمنعه الحلال ويبعثه على الحرام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ (الزخرف:٣٦) ومن يكن الشيطان له صاحبا وملازما فساء صاحبا ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ (النساء:٣٨) وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧) أي كل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيمة عداوة، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ (الفرقان:٢٧-٢٩).

وخلاصة الحديث أن الشيطان لم يترك مجالا من مجالات الحياة يخوضه الإنسان فردا أو جماعة، إلا وزين له سوء عمله فيراه حسنا، فيعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها، ويفتن بكل ما يتعلق بذاته، وينتابه شعور بأنه لا يخطئ أبدأ وأنه دائمًا على صواب، فلا يراجع نفسه في شيء ولا يحاسبها على أمر، وبالتالي لا يطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله، أو في رأي يراه، وبهذا يتمادى فيما هو عليه من ضلال، إلى ما شاء الله، أما الذي يكتب الله له الهدى، فهو على النقيض من ذلك فهو دائم المراقبة لله في أقواله وأفعاله، ودائما نفسه اللوامة مستيقظة لتحركاته تنبه لتصرفاته، ودائما يخشى ربه ويخاف سوء الحساب، ويدرأ بالحسنة السيئة، وهذا هو مفترق الطرق بين الهدى والضلال، وبين الفلاح والبوار. كما بينت الآيات، ما أشرنا إليه في أول المقال، في أن ما هو عليه البعض ممن عصوا الله، من مال وبنين وبحبوحة من نعم الله، ليس لخير فيهم يستحقونه، ولا لرضا من الله عليهم، ولا تكريما لهم، فليس الأمر كما يظنون، وإنما هو إملاء واستدراج لهم، لكنهم لا يحسون ذلك، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ (المؤمنون:٥٥-٥٦)

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨) وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وأن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه».

وأخيرا فإن كل ما يعود بالنفع والخير على الإنسانية جمعاء وعلى كل كائن حي، وعلى الكون بمحتوياته، سواء كان عمل من أعمال البر في أي من أبوابه، أو اكتشاف شيء كان مجهولا في أي من التخصصات العلمية والأكاديمية، أو اختراع فكرة جديدة قابلة للتطبيق على أرض الواقع، يعد من الأعمال الصالحة، فإذا قام بها غير المسلم، فإن الحق يخبرنا في محكم تنزيله، أن صاحبه يستفيد منها في الدنيا، يجازى ويكافأ عليه فيها، فتتحقق له منافعه التي يرجوها، وما له في الآخرة من نصيب، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (هود:١٥-١٦) والمسلم يجازى على أعماله تباعًا لنيته، فإذا قام بها لإبراز مهاراته أو تفوقه أو للحصول على مغنم دنيوي، سواء كان منصبا أو ترقية أو غيرهما من الامتيازات، فهو أيضا يجازى ويكافأ عليها في الدنيا، بما يناسب مجهوده وبما يراه أصحاب الأمر في ذلك، أما إذا كانت نيته التعبد والتقرب لله سبحانه وتعالى، وطمعًا في نيل رضاه والحصول على الأجر والثواب، فيكون سببا في سعادته في الدنيا ودخول الجنة في الآخرة. فمن الشروط الواجبة في كل عمل سواء كان عملا دينيا أو دنيويا: أن لا ينفصل عن الإيمان بكل شعبه، وموافقا لما شرع الله. وأن يكون متقنا، ذلك لكون الإتقان من أشكال الإحسان، والذي هو الرتبة الثالثة من مراتب الدين الإسلامي، والتي تتضمن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، وأن يكون العمل خالصا لوجه الله الكريم وابتغاء مرضاته، وبإخلاص النية لله، بتجرد الإنسان من حظوظ النفس التواقة إلى الذكر والشهرة والمدح والثناء من الناس، وليس عليه جناح أن يبتغي من فضل الله ونعمه مع ذلك أيضا، للاستعانة به على طاعة الله، وفي ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

* * *

* *

نسَاء ذوات عَزائم وهمَم

بقلم: الأستاذ/ علي الجندي

لم يخل الزمن السابق؛ بل لم يخل أي زمن من نساء صالحات قانتات لهن عزائم الرجال الناسكين العباد ممن طرز ذكرهم أعلام التاريخ، وعطرت سيرتهم صفحات الأسفار، وسنوا للأعقاب السنن الحق في الوصول إلى رحاب القدوس الأعلى – عز وجل وتباركت ذاته وعزت صفاته، منهن السيدة عائشة بنت الإمام جعفر الصادق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- المدفونة بباب قرافة مصر، بلغ من ثقتها بربها وحسن ظنها به وإدلالها عليه أنها كانت تقول: وعزتك وجلالك لئن أدخلتني النار لآخذن توحيدي بيدي وأدور به على أهل النار وأقول لهم: وحدته فعذبني.

ومنهن معاذة العدوية المكنية بأم الصهباء زوجة صلة بن أشيم العابد كانت تحيي الليل كله وكانت إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه، فتصوم وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها فلا تنام وتصلي حتى تصبح فلا تزال صائمة قائمة، وكان إذا غلبها النوم قامت فجالت في الدار وهي تقول: يا نفسي النوم أمامك ثم لا تزال تدور في الدار إلى الصباح تخاف الموت على غفلة ونوم، وكانت تصلي في اليوم والليلة ست مئة ركعة، ولما مات زوجها لم تتوسد فراشا حتى ماتت، وقد أدركت السيدة عائشة وروت عنها كما روت عن الإمام علي، وروى عنها كثير من الشيوخ وكان ابن معين يوثقها، توفيت سنة ٨٣هـ.

رابعة العدوية:

كانت كثيرة البكاء والحزن، وكانت إذا سمعت ذكر النار غُشي عليها زمانا، وكانت ترد ما أعطاه الناس لها وتقول: مالي حاجة بالدنيا. وقد عمرت إلى الثمانين فأصبحت كأنها شن بال تكاد تسقط إذا مشت، وكان كفنها لم يزل موضوعا أمامها في موضع سجودها، وكان موضع سجودها كالماء المستنقع من كثرة دموعها.

وتعد رابعة أشهر النساء الناسكات ولها كلام نفيس يدور على الألسنة، من ذلك: أنها سمعت سفيان الثوري يقول: واحزناه فقالت له: واقلة حزناه لو كنت حزينا ما هناك العيش. وكانت تقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار. وكانت تقوم الليل كله ثم تقول: إن شكر قيام هذه الليلة أن أصوم غدا. وقالت عبدة خادمتها: كانت رابعة تصلي الليل كله فإذا قرب طلوع الفجر هجعت في محرابها هجعة

حتى يطلع الفجر ثم تقوم وهي فزعة قائلة: يا نفسي كم تنامين؟ يوشك أن تنامي نومة فلا تقومين إلا لصرخة القيامة. فكان هذا دأبها إلى أن ماتت.

ومن كراماتها: أنها باتت ليلة فجاء اللص فأخذ ثيابها ثم أراد الخروج فلم يجد الباب فهتف به هاتف: إن كان المحب نائما فالمحبوب يقظان، ضع الثياب واخرج من الباب.

ماجدة القرشية:

كانت تقول: ما حركة تسمع ولا قدم يوضع إلا ظننت أني أموت في أثرها، ومن قولها: لم ينل المطيعون ما نالوا من حلول الجنان ورضاء الرحمن إلا بتعب الأبدان ومن كلامها البليغ: يا لها من عقول ما أنقصها سكان دار أوذنوا بالنقلة وهم حيارى يركضون في المهلة كأن المراد غيرهم والتأذين ليس لهم ولا عني بالأمر سواهم.

حبيبة العدوية:

كانت إذا صلت العشاء قالت: إلهي قد أقفلت الملوك أبوابها وحجبتها حجابها، وكل حبيب خلا بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك. ثم تصلي حتى الفجر!

شعوانة الزاهدة:

قال يحيى بن بسطام: دخلنا على شعوانة نأمرها أن ترفق بنفسها ونلومها في كثرة بكائها فبكت ثم قالت: والله لوددت أن أبكي حتى ينفد دمعي ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة دم في جارحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء. فلم تزل تقول: وأنى لي بالبكاء حتى غشي عليها. ومن مناجاة شعوانة لخالقها – جل وعلا: إلهي ما أشوقني إلى لقائك، وأعظم رجائي لجزائك، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي، قد جرت على نفسي في النظر لها، وبقي لها حسن نظرك، فالويل لها إن لم يسعدها حسن نظرك. إلهي، أنت لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد وفاتي، ولقد رجوت من تولاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه. إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتك لي قد أجارتني؛ فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله. إلهي، لو أردت إهانتي لم تهدني، ولو أردت فضيحتي لم تسترني، فمتعني بما له هديتني، وأدم لي ما به سترتني. إلهي، ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري. إلهي، لولا ذنوبي ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك. إلهي، إنك لتعلم أن العطشان من حبك لا يروى أبدا.

ثم لا تزال تبكي حتى يطلع الفجر. وكان الفضيل بن عياض يزورها ويسألها الدعاء!

عفيرة العابدة:

كانت كثيرة الخوف من الله وكانت ملازمة لذكر الله يقول أحمد بن علي: استأذنا على عفيرة

فحجبتنا فلازمنا الباب فلما عرفت ذلك قامت وهي تقول: أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك. ثم فتحت الباب لنا فدخلنا وسألناها الدعاء فقالت: جعل الله قراكم من نبق الجنة، وجعل ذكر الموت مني ومنكم على بال، وحفظ علينا الإيمان إلى الممات وهو أرحم الراحمين.

فاطمة النيسابورية:

كان ذو النون المصري يقول عنها: فاطمة أستاذتي، وكان أبو زيد يقول: ما رأيت امرأة مثل فاطمة، ما أخبرتها عن مقام من المقامات إلا وقد رأته عيانا، ومن قولها: من لم يراقب الله تعالى في كل حال فإنه ينحدر في كل ميدان، ويتكلم بكل لسان، ومن راقب الله تعالى في كل حال أخرسه إلا عن الصدق وألزمه الحياء منه والإخلاص له.

أم هارون:

كانت من الخائفات العابدات وكانت تأكل الخبز وحده من غير إدام، وكانت تحب الليل، وتقول ما أنشرح إلا بدخوله، فإذا طلع النهار اغتممت، وكانت تحييه كله وتقول: إذا جاء السحر دخل قلبي الروح – الراحة .. وسمعت مرة قائلا يقول: خذوها فتمثلت القيامة فسقطت مغشية عليها.

عمرة امرأة حبيب:

كانت تقوم الليل كله، فإذا جاء السحر قالت لزوجها: قم يا رجل، فقد ذهب الليل وجاء النهار وانفض كوكب الملأ الأعلى وسارت قوافل الصالحين وأنت متأخر لا تدركهم، واشتكت عيناها مرة فقيل لها: ما حال وجع عينيك؟ فقالت: وجع قلبي أشد.

أمة الجليل:

كانت من العابدات الزاهدات وبلغت من ثقة الصالحين بها أنهم اختلفوا مرة في تعريف الولاية على أقوال فقالوا: امضوا إلى أمة الجليل لنسمع رأيها فقالت لهم: ساعات الولي ساعات شغل عن الدنيا ليس منها ساعة يتفرغ فيها لشيء دون الله عز وجل.

ثم قالت: من حدثكم أن وليًّا لله تعالى له شغل بغير الله تعالى فكذبوه ..

عبيدة بنت أبي كلاب:

كان الناس يقدمونها على رابعة العدوية، وكانت تتردد على مالك بن دينار، وهو من هو في العلم والزهادة وتأخذ عنه.

بلغت من ورعها أنها كانت تقول: لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت. وسمعت شخصا يقول: لا يبلغ المتقي حقيقة التقوى حتى لا يكون شيء أحب إليه من القدوم على الله تعالى فخرجت مغشيًّا عليها..

منفوسة بنت زيد بن أبي الفوارس:

كانت إذا مات لها ولد، تضع رأسه في حجرها وتقول: والله لتقدمك أمامي خير عندي من تأخرك بعدي ولصبري عليك أولى من جزعي عليك ولئن

كـان فراقـك حسرة؛ فـإن في توقـع أجـرك لخـيرة ثـم تنشد قول عمرو بن معديكرب:

وإنا لقوم لا تفيض دموعنا

على هالك منا وإن قصم الظهرا

ميمونة السوداء:

حكى أبو نعيم في الحلية في ترجمة عبد الواحد بن زيد عن الفضيل بن عياض أن ابن زيد سأل ربه ثلاث ليال أن يريه رفيقه في الجنة فإذا بقائل يقول له: هي ميمونة السوداء، قال:

فقلت: وأين هي؟

قال: بالكوفة.

قـال: فخرجـت في طلبهـا، فلـما سـألت عنهـا قالوا: هي مجنونة، وأنها بموضع كذا ترعى غنما لها، فأتيت إليها فرأيتها قد غرست عكازا وعليها جبة صوف مكتوب عليها لا تباع ولا تشترى، ووجدت الغنم ترعى مع الذئاب بلا ضرر، ووجدتها قائمة تصلي، فلما رأتني أوجزت في صلاتها ثم قالت: يا ابن زيد، ليس هذا موضع الموعد.

قلت: ومن أين عرفتني؟

قالت: الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

وفي رواية: قالت: جالت روحي وروحك في عالم الملكوت فتعارفنا.

فقلت لها: عظيني.

فقالت: واعجبا من واعظ يوعظ!

ثم قالت: يا ابن زيد، لو وضعت معيار القسط – العدل – على جوارحك لخبرتك – أي الجوارح – بمكنون ما فيها.

يا ابن زيد، ما من عبد أعطاه الله شيئًا من الدنيا فابتغى إليه ثانيا، إلا سلبه الله حب الخلوة معه وبدله بعد القرب البعد وبعد الأنس الوحشة ثم أنشدت:

يا واعظا قام لاحتساب ... يزجر قومًا عن الذنوب

تنهى وأنت السقيم حقا ... هذا من المنكر العجيب

لو كنت أصلحت قبل هذا ... غيك أو تبت عن قريب

كان لما قلت يا حبيبي ... موضع صدق من القلوب

تنهى عن الغي والتمادي ... وأنت في النهي كالمريب

قال: ثم سألتها: ما بال الذئاب ترعى مع الغنم لا نضرها؟

قالت: أصلحت ما بيني وبينه، فأصلح ما بين الذئاب والغنم.

آمنة الرملية:

كانت تسكن مدينة الرملة من أعمال فلسطين وكانت آية في الورع والتقوى وقد حدث أن مرض

بشر الحافي – رحمه الله – فسافرت إلى بغداد لتعوده، فلما دخلت إليه صادف مجيء الإمام ابن حنبل إليه عائدا فقال: من هذه؟ فقال بشر: هذه آمنة الرملية جاءتنا عائدة..

فقال الإمام أحمد: اسألها لنا الدعاء، فقالت آمنة: اللّهم إن بشرا الحافي وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين.

قال الإمام أحمد: فرأيت في تلك الليلة في المنام رقعة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم قد فعلنا ذلك ولدينا مزيد.

امرأة رباح القيسي:

كانت إذا صلت العشاء تطيبت ولبست ثياب الزينة ثم تقول لزوجها ألك حاجة؟ فإن قال: لا. نزعت ثيابها وصلت حتى الفجر، وكانت تقوم الليل كله، فإذا قضى الربع الأول تقول: قم يا رباح، فلا يقوم وهكذا تعاوده إلى تمام الليل، فتجيئه فتقول قم: يا رباع، قد مضى عسكر الليل وأنت نائم فليت شعري من غرني بك يا رباح، ما أنت إلا جبار عنيد، وكانت تأخذ تبنة من الأرض وتقول: والله للدنيا أهون علي من هذه.

بريرة السعدية:

كانت بريرة كثيرة العبادة مواظبة على القراءة في المصحف الشريف وظلت تبكي من خشية الله حتى ذهب بصرها.

ويقول ابن عمها العلاء السعدي: دخلنا إليها فقلنا لها: كيف أصبحت يا بريرة؟

قالت: أصبحنا ضعافا مقيمين في أرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب.

فقلت لها: لم هذا البكاء؟ قد ذهبت عيناك منه!

فقالت: إن يكن لعيني خير عند الله فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا.

وعن عبد الله بن المبارك قال: بينما أنا أطوف في الجبال إذا أنا بشخص، فلما دنا مني إذا هو امرأة عليها ثياب من صوف فسلمت ثم قالت: من أين؟ قلت: غريب.

قالت: وهل تجد مع سيدك وحشة الغريب وهو مؤنس الضعفاء ومحدث الفقراء.

قال: فبكيت لكلامها.

فقال: ما أسرع ما وجدت طعم الدواء!

فقالت: هكذا العليل.

ثم قلت: عظيني يرحمك الله.

دنياك غرارة فذرها
بأنها مركب جموح
دون بلوغ الجهول منها
أمنية نفسه تطوح
لا تركب الشر فاجتنبه
فإنه فاحش قبيح

والخير فاقدم عليه جهرا

فإنه واسع فسيح

فقلت: زيديني..

فقالت: سبحان الله أوما في هذا الموقف من الفوائد ما أغنى عن الزائد؟

فقلت: لا غنى لي عنه..

فقالت: أجب ربك شوقا إلى لقائه، فإن له يوما يتجلى فيه لأوليائه.

وقال عبد الرحمن بن الحسن: كانت لي جارية رومية – وكنت أحبها – فنامت ليلة إلى جواري فانتبهت فلم أجدها. فطلبتها فإذا هي ساجدة تقول: اللّهم بحبك لي اغفر ذنوبي..

فقلت لها: كيف تقولين: بحبك لي؟

فقالت: يا مولاي، بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام، وبحبه لي أيقظني، وكثير من خلقه نيام.

وقال بعض الصالحين: كانت لي جارية حبشية، فمضت معي إلى السوق في حاجة فأقعدتها في مكان وقلت لها: اقعدي حتى أجيء.

ثم مضيت، فقضيت ما أريد، وعدت إلى المكان فلم أجدها.

فأتيت منزلي فلما رأتني قالت: يا سيدي، لا تغضب، إنك تركتني في موضع لم أجد من يذكر الله تعالى فيه فخفت أن يخسف بهم ويخسف بي معهم.

فقلت لها: إن هذه الأمة قد أمنها الله من الخسف.

فقالت يا سيدي، إنما خفت أن يخسف بالقلوب فتزل عن الاستقامة.

فقلت لها: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى.

فقالت يا سيدي، حرمتني من خير كثير، كنت أعبد ربي، وأخدمك فيكون لي أجران.

وقد ذكر الجاحظ في كتابيه «الحيوان» و«البيان والتبيين» من نساء الخوارج الناسكات: الشجاء، وحمادة الصوفية، والبلجاء، وغزالة الشيبانية وكحيلة وقطام.

ومن نساء الغالية: الميلاء، وحميدة، وليلى الناعطية والصدوف، وهند وقد قتل بعضهن فأظهرن من الصبر والشجاعة فوق ما تتصوره العقول..

هذا غيض من فيض مما حفلت به الكتب من تراجم الكرائم السلفيات وقد يكون في بعض ألوان هذه العبادة نوع من المغالاة التي تجافي روح الملة الحنفية السمحة البيضاء؛ ولكن لا يصح أن ننسى أن هذه التعبدات تصدر عن رغبة صادقة وعقيدة راسخة وانبعاث حبي لا تعمل في كلفة، وكل ميسر لما خلق له، ومهما يكن فالتعالي في الطاعة خير من التدلي في المعصية خير من السرف في التبرج الشائن أو التكشف المقيت خير من لبس الميني جيب والميكروجيب.

والله الهادي إلى سواء السبيل..

من تـاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١١٨)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

بدء المساعي الرامية إلى تحرير الهند:

لم يكن شهد العالم الحرب العالمية الأولى، وإن كانـت ملامحهـا بـدأت تظهـر، وكانـت الحكومـة البريطانيـة قـد بـدأت الحـرب النفسية ضـد حكومـة السلطنة العثمانية، وازدادت الأوضاع سوءا وتفاقما، حتى اشتعلت جمرته المهيبة عام ١٩١٤م-١٣٣٣هـ، وكان شيخ الهند يعاني في تلك الأيام قلقًا واضطرابًا شـديدين، ولم يتجـاوز هـدف حـزب المـؤتمر الـوطني الهندي طلبَ الحقوق، و هذه الأوضاع حملت شيخ الهنـد عـلى إلقـاء بـذرة لحركـة ثوريـة، فأعـد خطـة للإطاحة بالحكومة البريطانية بالانقلاب المسلح، كما يتجلى لاحقًا، وكانت هذه الخطة على منتهى الدقة والتنظيم.

وكـان العـالم الإسـلامي يمـر بـبلاء عظـيم عـام ١٣٣٠هـ/١٩١١م، وتوصلت حكومات أوربا بعد اتفاقيـة غـير معلنـة إلى ضرورة القـضاء عـلى حكومـة الأتـراك. وكانـت فاتحته بهجوم إيطاليا على طرابلس الخاضـعة للحكومـة التركيـة، واسـتولت فرنـسا عـلى المغرب بصورة غير شرعية، وواصلت ولايات بلقان النـصرانية هجومهـا عـلى الأتـراك، وكانـت تلعـب وراءها سياسة بريطانيا. وكانت هذه الأحداث مبعث خـوف في قلـب كـل مسلم متألم. وحـارب الإنجليـز والأمـم الأوربيـة الأخـرى الأتـراك، وعزمـت عـلى استئصالهم من على وجه الأرض مما أشعل عواطف المسلمين كثيرًا. فـازدادوا نفـورًا مـن الإنجليـز. وكـان مسلمو الهند يومئذ يكنون في نفوسهم تحمسًا وهيجانًا شديدا، فقد كان المسلمون في العالم كله يرون الخلافة العثمانيـة ظهـيرًا لهـم، وينظـرون إليهـا نظـرة ملؤهـا التقـدير والاحـترام. ويـنادون حكـامهم وخلفـاءهم بخدام الحرمين الشريفين.

وفي ذات الأيـام أعـد شـيخ الهنـد خطـةً موسـعةً للقـضاء عـلى حكـم الإنجليـز في الهنـد بـالثورة المسلحة، فأعد لذلك برنامجه بصورة منظمة للغاية، وسـعت جماعـة مـن تلامذتـه وأصـحابه المنتشرين في معظـم بـلاد الهنـد وخارجهـا سـعيها ونـشطت نـشاطًا

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

عظيما، وبذلت نفوسها لتجسيد هذه الخطة على أرض الواقع. ومن هؤلاء التلامذة: الشيخ عبيد الله السندي، والشيخ محمد ميان منصور الأنصاري، وآخرون انضموا إليهم، ممن وقفوا حياتهم لتحقيق خطة شيخ الهند السياسية والثورية. وكانت هذه الحركة على منتهى التنظيم والتنسيق، وقامت بتهيئة الأرضية للاستقلال القادم في طول البلاد وأرضها. وبدؤوا العمل على هذه الخطة على جبهتين: جبهة داخل البلاد، وأخرى خارجها، وكانوا يعدون العدة للثورة المسلحة على الجبهتين. وكانت الفكرة السائدة أنذاك تميل إلى أن طرد الإنجليز من الهند لايمكن إلا بالقوة. فكان شن حرب التحرير يتطلب الاستعانة بالأسلحة والجنود من خارج الدولة، وأول بلد وقع عليه أنظار شيخ الهند في ذلك هي أفغانستان. ونظرًا إلى أن أفغانستان كانت دولة متاخمة للهند، كان استيراد الأسلحة منها أيسر، كما أمكن الاستعانة بالقبائل الحرة النازلة على الحدود الهندية، فاتخذوا من المنطقة الحرة في «ياغستان» مركزًا للأسلحة والجنود.

وتواصل شيخ الهند مع علماء منطقة «سرحد» الذين تلقوا دراستهم في دارالعلوم/ ديوبند، وكان خطط لنشر شبكة مناوئة للإنجليز من أفغانستان إلى الهند، وتقوم القوى المنظمة في الهند والقبائل الحرة بشن هجوم بمناسبة خاصة على الهند البريطانية، وتبدأ حرب التحرير في طول البلاد وعرضها، وكانوا يرون أنه وضع يعجز الإنجليز عن مواجهته.

وكان من الواجب الاستعانة بالدول الأجنبية لتحرير الهند، فكلف شيخ الهند الشيخَ عبيد الله السندي الرحيلَ إلى «كابول» لمهمة خاصة. كما أرسل الشيخ محمد ميان الأنصاري إلى القبائل الحرة للتحريض على الجهاد، وسافر شيخ الهند بدوره إلى الحجاز للاستعانة بالأتراك، وكان الإنجليز يشتغلون في الحرب ضد ألمانيا.

وفصَّل فقرة رقم (١٦٤) من لجنة «رولت»[1] الكلام حول حركة الرسائل الحريرية من الوجهة الرسمية، ما ملخصه:

«انكشف القناع عن أحداث الرسائل الحريرية في أغسطس عام ١٩١٦م/١٣٣٤هـ، وهي خطة وضعوها في الهند بهدف إثارة الفوضى في الشمال الغربي من الحدود في جانب، وفي جانب آخر تقويتها بالمسلمين الهنود، وبالتالي القضاء على الحكومة البريطانية. وتحقيقًا لهذه الخطة عبر المدعو/عبيد الله مع ثلاثة من زملائه الحدود الغربية في أغسطس عام١٩١٥م/١٣٣٣هـ، وكان عبيد الله من السيخ في أول أمره، ثم أسلم، وتلقى الدراسة الدينية في ديوبند. وأعظم من أثر فيهم عبيد الله هو الشيخ محمود حسن، الذي شغل منصب رئيس هيئة التدريس في هذه المؤسسة مدة من الزمان. وحرص عبيد الله على شنّ حركة عالمية إسلامية ضد بريطانيا في الهند على أيدي العلماء الخريجين من ديوبند.

وكانت تعقد المجالس السرية في بيت الشيخ محمود حسن. ويُذكر أن رجلا من منطقة «سرحد» كان يشارك هذه المجالس. وغادر الشيخ محمود الهند في ٨/سبتمبر عام ١٩١٥م/١٣٣٣هـ، ووصل إلى الحجاز. وكان أهم أهداف الشيخ محمود وعبيد الله شن الهجوم مرةً واحدةً على الهند من خارجها، بجانب إثارة البغي والخروج في الهند. وبدأ عبيد الله وزملاؤه بلقاء المتعصبين من جماعة المجاهدين الهنود، ثم سافر إلى «كابول»، ولقي بها البعثة التركية الألمانية، ثم لحقه زميله الديوبندي المدعو/دوست محمد ميان أيضًا، وكان دوست محمد صحب الشيخ محمود حسن إلى الحجاز، وعاد منها عام ١٩١٦م/ ١٣٣٤هـ بعد أن حصل على الإعلان بالجهاد. وتلقاه الشيخ محمود حسن من القائد التركي في الحجاز وهو غالب باشا. واشتهرت هذه الوثيقة بـ«غالب نامه»، وقام محمد ميان بتوزيع نسخها في طريقه في الهند وفي قبائل منطقة «سرحد».

ووضع عبيد الله وأصحابه اقتراحًا للحكومة الموقتة بعد سقوط الحكومة البريطانية، يشير هذا الاقتراح إلى أن المدعو/مهندرا براتاب[٢] يتولى رئاسة هذه الحكومة، وهو هندوسي متحمس من عائلة شريفة، وصدر له جواز سفر إلى السويد وإيطاليا وفرنسا وغيرها عام ١٩١٤م/١٣٣٢هـ، فتوجه مباشرةً إلى جنيف، ولقي بها المدعو/هريال- السيء السمعة[٣]- الذي أخذه بدوره إلى القنصل الألماني فلقيه، ثم ارتحل منها إلى ألمانيا، وأرسِل إلى «كابول» في مهمة خاصة. وكان من المفروض أن يتولى عبيد الله وزارة للهند، ويشغل بركت الله منصب رئيس الوزراء. وكان بركت الله[٤] صديقا لـ«كرشنا ورما» وعضوا في حزب الغدر الأمريكي.

وفي أوائل عام ١٩١٦م/١٣٣٤هـ فشل أعضاء البعثة الألمان في أهدافهم، وغادروا أفغانستان[٥]، وأما الأعضاء الهنود فلبثوا بها، وأرسلوا من قبل الحكومة الموقتة رسائل إلى حاكم تركستان الروسية وإلى ملك روسيا يطالبون فيها بتخليهما عن بريطانيا، وبمساعدتهما على القضاء على الحكومة البريطانية في الهند، وقد وقع على هذه الرسائل الراجا مهندرا براتاب. وكانت الرسالة التي بعِثت إلى ملك روسيا مكتوبة على لوحة من الذهب، وكان من مقترحات هذه الحكومة الموقتة ضرورة التواصل مع الحكومة التركية، وتحقيقًا لهذا الهدف كتب عبيد الله رسالةً إلى الشيخ محمود حسن في ٩/يوليو عام ١٩١٦م/١٣٣٤هـ، برفقة رسالة أخرى لمحمد ميان الأنصاري، التي تتحدث عن نشر «غالب نامه»، وقد جاء فيها اقتراح نشأة الحكومة الموقتة وتكوين جيش باسم «حزب الله»، وكان المفروض أن يعبئوا هذا الجيش من الهند. وكان من مسؤولية الحكومة الموقتة التنسيق بين الحكومة الإسلامية. وطلبوا من الشيخ محمود حسن أن يوصل هذه الأحداث إلى الحكومة العثمانية.

وهذه الرسائل كتبت على الحرير الأخضر[٦].

وكانت رسالة عبيد الله تتضمن خريطة كاملة لحزب الله، وقرروا أن تكون المدينة المنورة مركزًا للجنود، وأن الشيخ محمودًا هو الذي يتولى قيادتها، وأن المراكز الفرعية تقوم في «قسطنطينية» و«طهران» و«كابول» تحت القيادات المحلية، وأن القائد العسكري في «كابول» يتولى منصبه عبيد الله. وتضمن هذا الفهرس أسماء ثلاث قيادات واثني عشر من الجنرالات، وعدد السلطات العسكرية العليا. ووقعت هذه الرسائل الحريرية في أيدي السلطة البريطانية. ونظرًا إلى ما تحويه هذه الرسائل اتخذوا بعض التحفظات. وألقت الحكومة البريطانية القبض على الشيخ محمود حسن وأربعة من أصحابه عام ١٩١٦م/١٣٣٥هـ، فكانوا أسرى الحرب تحت الرعاية البريطانية، وأصبح غالب باشا -الذي وقع على «غالب نامه»- أسيرا حربيا، وقد اعترف بأن حزب محمود حسن عرض عليه رسالة، فقام بالتوقيع عليه[٧].

ورغبة في إنجاح خطته قام شيخ الهند بالرحلة إلى الحجاز عام ١٣٣٣هـ/١٩١٥م رغم كبر سنه وعتو عمره، لقيه الحاكم التركي غالب باشا وأنور باشا - وكان وزيرا للحرب في تركيا-، وتوصل إلى بعض الأمور الهامة. وكان يرغب أن يقوم برحلة إلى منطقة القبائل الحرة «سرحد» من الحجاز مارًّا ببغداد وبلوشستان، إذ فوجئ بالاعتقال على يد والي مكة الشريف حسين بإيعاز من الحكام الإنجليز، وبالتالي دفعه إليهم، وجاء هذا الاعتقال مع أصحابه في ٢٣/صفر عام ١٣٣٥هـ، وكان يصحب شيخَ الهند كل من الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ عزير غل، والحكيم نصرت حسين، والمولوي وحيد أحمد؛ حيث اعتقلوا جميعًا. وبعد الاعتقال نقلوهم من مكة إلى جدة، حيث قضوا نحو شهر في الاعتقال بها، وفي ١٨/ربيع الأول عام ١٣٣٥هـ (١٢/يناير عام ١٩١٧م) حملوهم على السفينة ونقلوهم إلى السويس، ومنها إلى مالطه التي كانت أحصن مكان لأسرى الحرب في المناطق الخاضعة لبريطانيا. وتم تسجيل أقوال شيخ الهند وأصحابه، وكان من أهم الأسئلة التي وجهت إليهم خلال الاستجواب ثلاثة:

١- ما هدفك من وراء لقاء غالب باشا وغيره من وزراء تركيا في المدينة المنورة.

٢- ما الذي حجزك عن التوقيع على الفتوى بتكفير الأتراك؟

٣- كما سألوه عن تفاصيل نشاطات الشيخ عبيد الله في أفغانستان.

وأما في الهند فقد استجوبوا وتحققوا مع أصحاب شيخ الهند، واستمرت التحقيقات في الهند سنة فصاعدًا اعتبارًا من ذي القعدة ١٣٣٤هـ (سبتمبر١٩١٦م). وساق كل من كتاب «سفرنامه أسير مالطه»، وكتاب «نقش حيات» تفاصيله كلها.

وسجنوا الشيخ محمود مع أصحابه في «مالطه» نحو ثلاث سنوات وأربعة أشهر، وسمحوا له بالعودة إلى الهند حين وضعت الحرب أوزارها. ونزل الشيخ في ٢٠/رمضان عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م على ساحل مومبائ، وغادرها إلى ديوبند، فبدأ بدارالعلوم، ثم توجه إلى بيته.

وما إن وصل شيخ الهند إلى الهند حتى شارك في حركة الخلافة، وأفتى بترك الموالاة مع الحكومة البريطانية، فشهدت الهند ثورة وهيجانا شديدًا. ورغم أن حركة الرسائل الحريرية لفظت نفسها الأخير بعد انكشاف خطة شيخ الهند إلا أن عاطفة شيخ الهند نحو تحرير البلاد لم تتضاءل. و بعد أن عاد إلى الهند حاولت الحكومة البريطانية بشتى الحيل حمله على اعتزال السياسة إلا أنه أبى ذلك. ولقي مولانا شوكت علي وأعضاء لجنة الخلافة حين وطئت قدماه أرض «مومبائ» ، كما سافر كل من الشيخ عبد الباري الفرنكي محلي من لكناؤ، و «مهاتما غاندي» من أحمد آباد إلى مومبائ، واجتمعا به فيها. كما تحدث الشيخ إلى الزعماء الآخرين أيضًا[٨]. وانضم شيخ الهند إلى لجنة الخلافة وجمعية علماء الهند في حركة تحرير البلاد. وخمدت بذلك خطة تحرير الهند عن طريق الثورة المسلحة.

يقول الشيخ عبيد الله في «مذكرته الشخصية»: «كان حزب شيخ الهند يحتل في الحرب السابقة المكانة التي كان يحتلها الجيش الهندي الحر وحكومة الهند الحرة إبان الحرب العالمية الثانية. كما أن النشاطات الحالية بعد الحرب تشكل صورة متطورة للجهود الثورية إبان الحرب، كذلك ما قامت به حركة الخلافة من الجهود السياسية يشكل صورة متطورة لنشاطات جماعة شيخ الهند وأصحابه. وإذا كان الفضل في تحرير البلاد يرجع إلى «سبهاش تشندرا بوس» فإن المساعي المتقدمة على الحرب العالمية الأولى كان شيخ الهند يشكل محورًا لها، فقد بدأ نشاطاته السياسية منذ عام ١٩٠٥م/١٣٢٣هـ، وكانت تشكل جزءًا من البرنامج الذي يسميه الشيخ عبيد الله «حركة الشاه ولي الله الدهلوي السياسية»[٩].

بعد النكسة التي أصيبت بها الخلافة العثمانية في الحرب العالمية الأولى قامت حركة الخلافة على قدم وساق. وكانت تشكل محاولةً موسعةً منظمةً لتحرير البلاد، وقد تضاءلت أمامها سياسة حزب المؤتمر الهندي على مستوى الدولة، وتظاهر «المهاتما غاندي» حينئذ بمنتهى تدبره السياسي وبصره العميق للأمور؛ فقد أدرك حساسية الأوضاع الخطيرة، وضم حزب المؤتمر الهندي إلى لجنة الخلافة، فنفخ ذلك في حركة الهند القومية روحًا وقوةً وشدةً فاستعصى على السلطات الإنجليزية التغلب على الهند. وأدت هذه الجهود المتضامنة والموحدة إلى أن قطعت الهند مراحل التحرير بسرعة كبيرة، وتمتعت البلاد بالحرية خلال (٢٧) سنة.

ومن الظلم أن نغض الطرف عن هذا المنعطف الهام في تاريخ كفاح الهند لتحريرها، ولولا أن «المهاتما غاندي» قام بضم حزب المؤتمر الهندي إلى لجنة الخلافة لم يسهل على الهند قطع مراحل التحرير بهذه السرعة.

وبعد أن عاد شيخ الهند إلى البلاد انضم إلى حركة الخلافة، فقد أفتى الشيخ باللاموالاة مع الحكومة البريطانية، مما أثار ثورة وهيجانا شديدا في طول البلاد وعرضها حتى استعد الناس لإغلاق جامعة عليكره المسلمة. وكان شيخ الهند يعاني المرض الشديد يومئذ، وهو في الوضع ذاته سافر إلى عليكره، ودشَّنَ الجامعة الملية في جامعة علي كره، وقد تحولت الجامعة فيما بعد إلى دهلي. وألقى الشيخ يومئذ خطبة سياسية هامة لاتزال محفورة في تاريخ الهند السياسي.

ومن أبرز مساعي شيخ الهند أن اجتمعت عليكره وديوبند على رصيف واحد، وضاقت الفجوة التي كانت بين عليكره وديوبند لحد كبير. والحاصل أنه كان يجمع بين العلم والفضل والزهد والتقوى وبين الحنكة والتمكن من السياسة. ورغم أن وضعه الصحي تدهور بعد عودته من «مالطه» ساهم مساهمة فاعلة في الأعمال السياسية. ولم يتحمل وضعه الصحي هذه الأعباء إذ عرض له الرحلة إلى عليكره، وبعد قفوله منها أثار وضعه الصحّي القلق والاضطراب، فسافر إلى دهلي للعلاج على الدكتور/ مختار أحمد الأنصاري. وساهم الحكيم أجمل خان أيضًا في علاجه إلا أن الأجل المسمى قد جاءه، فانتقل إلى دار البقاء في ١٨/ربيع الأول عام ١٣٣٩هـ (٣٠/نوفمبر عام١٩٢٠م).

ونقل جثمانه إلى ديوبند، ودفن في اليوم التالي بالقرب من ضريح الشيخ النانوتوي رحمه الله.

وخلف الشيخ وراءه - علاوة على من لايحصى من العلماء والأفاضل- من الأعمال العلمية: «ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأردية»، و«الأدلة الكاملة»، و«إيضاح الأدلة»، و«أحسن القرى»، و«جهد المقل»، و«الأبواب والتراجم»، وفتاوى مختلفة، والخطب السياسية.

وللاستزادة من ترجمته يرجع إلى المصادر التالية:

١. حياة شيخ الهند، لصاحبه الشيخ ميان أصغر حسين الديوبندي.

٢. نقش حياة للشيخ السيد حسين أحمد المدني.

٣. أسير مالطه، للشيخ عزيز الرحمن البجنوري.

٤. تحريك شيخ الهند، ترتيب: الشيخ السيد محمد ميان.

* * *

الهوامش:

(١) نظرا إلى القلق السياسي العام في الهند شكلت الحكومة البريطانية عام١٩١٧م/١٣٣٦هـ لجنة للتحقيق، قامت بتقصي أحوال كثير من الجماعات السرية، وكان يرأس لجنة

التقصي هذه أحد الإنجليز يسمى «رولت»، وسميت اللجنة باسمه. (تاريخ الهند، للهاشمي الفريد آبادي، ص ٤٣٤).

(٢) كان «الراجا مهندرا براتاب» من سادات منطقة «مثورا»، تحول عام ١٩١٤م/١٤٣٣هـ من الهند إلى السويد، وانضم إلى الحزب الإمريكي الغادر. وكان واحدا من أعضاء البعثة التي أرسلت قبل الحرب الكبرى إلى أفغانستان التي تضم أعضاء من ألمانيا وتركيا. ووقع الراجا مهندرا براتاب بصفته رئيسا للحكومة الموقتة على الرسائل التي بعثتها الحكومة الموقتة إلى حاكم تركستان، و روسيا، وتضمنت الرسالتان مطالبة الحكومتين بالتخلي عن الحكومة البريطانية والإعانة على طرد الإنجليز من الهند. (نقش دوام ٢/٢١١-٢٤٢).

وتخلى الراجا مهندرا براتاب قبيل تحرير الهند عن حياته السياسية وعاد إلى الهند، ولايزال على قيد الحياة في دهرادون. وكانوا نصبوه رئيسا إلى أن يشكل حزب الكونغرس الحكومة كما أفاده بدوره. وكان المولوي بركت الله رئيسا للوزراء والشيخ عبيد الله السندي وزيرا للداخلية في هذه الحكومة الموقتة. (ميري داستان حياة، ص ٥١ My life story)

(٣) كان من الأحرار الذين بدؤوا جهود تحرير البلاد وهو في البلاد الأخرى حزب الغدر لـ«لاله هرديال» واشتهر بذلك.

(٤) وكان الشيخ بركت الله تلقى دراسته في «بوبال»، وأصله من «فتحفور»، وكان ينسب نفسه إلى بوبال. وكأنه حفظ القرآن الكريم و الصحاح الستة الحديثية، وتلقى الدراسة الإنجليزية إلى مرحلة الثانوية العامة، وتحول إلى إنكلترا متحمسا في نشر الإسلام، ثم تحول منها إلى أمريكا، واشتغل مدة من الزمان أستاذا للغة الأردية في «جامعة طوكيو»، وكان يسعى- بجانب الدعوة إلى الإسلام - لتنظيم صفوف المسلمين وتحرير البلاد، وأمسكه الأمير حبيب الله خان عنده بإصرار شديد، غير أنه لم يلبث أن غادر إلى روسيا، وكان «لينن» يحترمه كثيرا. وارتحل من روسيا إلى ألمانيا وفرنسا والسويد، وتوفي في «كالفورنيا» في نهاية المطاف. (سركزشت مجاهدين، غلام رسول مهر، ص٥١٣).

(٥) وفشل البعثة الألمانية في أفغانستان أدى إلى تأخر تحرير الهند لربع قرن من الزمان، وكان حاكم أفغانستان الأمير حبيب الله خان قال للبعثة الألمانية: إن شن الهجوم من أفغانستان على الهند يتطلب عقد اتفاقية مع حزب المؤتمر الهندي، ويجب أن يزور من القيادات الهندية محمد علي أو الباندت موتي لال نهرو أفغانستان، ولكن فشلت البعثة الألمانية في مثل هذا التأكيد لأفغانستان. وللاستزادة منه راجع: تاريخ ديوبند، ص٢٢٢-٢٤٢؛ ومشاهدات كابل وياغستان، ص٣٢، نقلا عن «سركزشت مجاهدين للشيخ غلام رسول مهر، ص٥١٥).

(٦) ونظرا إلى هذه الرسائل أطلق على حركة شيخ الهند «الرسائل الحريرية».

(٧) مذكرات شخصية للشيخ عبيد الله السندي، ص٥٣، ٦٠، نقلا عن نقش حيات ٢/٢٣٨-٢٤٠.

(٨) وكان السير رحيم بخش من الوجوه والشخصيات البارزة في ذلك العهد، يتمتع بالنفوذ والتأثير في الأوساط الدينية، وقد حضر بدوره على ساحل مومبائ لاستقبال الشيخ محمود بإيعاز من الحكومة البريطانية، وحاول بشتى الحيل أن يتخلى شيخ الهند عن السياسية، غير أن الشيخ رفض رفضا باتًّا.

وكان المولوي السير رحيم بخش ينتمي إلى عائلة إقطاعية من «راجبوت» في قرية «تهسكان ميرا» من أعمال «كرنال». و اشتغل في أول أمره في منصب المشرف على السكن في كلية «جيفس»، ومؤدب الطلاب حيث كان يتلقى أولاد ولاة الدولة الدراسة، ثم عين مديرا لمجلس الإقامة (Counsel of residency director) في إمارة «بهاولفور»، وكان مسلما صاحب دين وعقيدة راسخة، بايع الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وتحقق على يديه عدد من الإصلاحات الدينية في بهاولفور، وظل مشرفا على مدرسة مظاهر علوم مدة من الزمان، وكان على صلة بدار العلوم/ديوبند أيضًا، وكان من أنصار حركة دارالعلوم ندوة العلماء/لكناؤ. توفي في ٣/المحرم عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م عن عمر يبلغ (٧٦)عامًا.

(٩) مقدمة المذكرة الشخصية للشيخ عبيد الله السندي. (السيد محبوب الرضوي).

أحكام الائتلاف في أحكام الاختلاف

(٢/١)

بقلم: **الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي**
المعروف بـ«حكيم الأمة» (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)
تعريب: **الأستاذ محمد عاصم القاسمي**

بسم الله الرحمن الرحم

وبعد الحمد والصلاة؛ فإن هدف هذه الرسالة هو التنبيه على ما شاع وذاع في المجتمع الإسلامي من خطإ كبير، وهو أن الاتفاق يعتبر محمودًا بشكل عام، كما أن الاختلاف يعد مذمومًا بشكل عام لاسيما إذا وقع الاختلاف بين العلماء حتى يُنال منهم بذلك، ويُستدل على ذم الاختلاف بالحجج المطلقة تحريرًا وتقريرًا وإن كانت الحجج مقيدة بالشروط.

وقد نبَّهتُ على خطإ هذا الفكر من وقت لآخر في التحريرات والخطب؛ لكن لعدم وجود داع قوي لم تمس الحاجة إلى تحذير مستقل من ذلك حتى حدث الاختلاف في مسؤولي بعض المراكز التعليمية بأسباب خاصة، واشتد وتجاوز حد الاعتدال، فانتقدهم من ليس أهلا لذلك، وأعرب عن آرائه الفاسدة تجاه هذا الاختلاف، وإن كان بحسن النية، وأجبت عمن وجَّه الخطاب الخاص إلي بدلائل صحيحة؛ إلا أن هذه الإجابات بسبب إجمالها لم توافق الأصول المصرحة مما ادعت الحاجة إلى توضيحها وتطبيقها، وأيضًا يجب سد الطريق على هذه الشبهات في المستقبل.

فهذه الواقعة وهاتان الضرورتان مما يوجب تأليف هذه الرسالة وتحرير مسألة الاختلاف والاتفاق مع شيء من الشرح والتفصيل؛ حتى يتم كشف الحجاب عن الشبهات الموجودة، و ينسدّ الطريق على الشبهات المتوقعة، ويلاحظها الواعظون والكتاب في خطبتهم وكتاباتهم، ولقبته بـ«أحكام الائتلاف في أحكام الاختلاف» والله ولي الإعانة، وإليه التضرع والاستكانة.

المقدمة:

اعلم أن الاختلاف ينقسم- تقسيمًا أوليًّا- على قسمين. الأول: حقيقي، والثاني: غير حقيقي، و به علم أيضًا أقسام الاتفاق. ونحن الآن بصدد بيان الاختلاف جعلنا الاختلاف موضوعا للقسمة. والحاصل أن الاختلاف حقيقي وغير حقيقي، والمراد بالحقيقي أن يقع التعارض في حكم شيء واحد بحيث لو كان أحد الحكمين صحيحا كان الآخر باطلا البتة. ولايكون كلاهما صحيحا في وقت واحد، مثلًا يقول قائل: هذا حلال أو حسن،

والآخر: هذا حرام أو قبيح. فظاهر أنه لايمكن أن يكون ذلك الشيء حلالًا وحرامًا في آن واحد.

ثم هذا التعارض قد يكون بالتناقض بمعنى أنه كما لايجتمع ذانك الحكمان في شيء واحد كذلك لايفترقان فيه، مثلا في المثال المذكور لايمكن أن يكون ذلك الشيء حلالًا وحرامًا في نفس الأمر كما لايمكن أن يكون غير حلال وغير حرام.

وقد يكون التعارض بالتضاد بمعنى أنه لايجتمع الحكمان؛ ولكن قد يرتفعان، مثلًا يقول قائل: هذا الفعل مباح. ويقول الآخر: مستحب. فمن الواضح أنه لايكون مباحًا ومستحبًّا معًا؛ لكن يمكن أن لايكون مباحًا ولا مستحبًّا؛ بل يكون مكروهًا وبدعةً.

والمراد بغير الحقيقي أنه لا تعارض بين الحكمين؛ بل يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا، مثلًا يقال: أحد الحجرين أبيض والآخر أسود، فهما مختلفان؛ لكن الحكمين صحيحان لاختلاف محل اللون، ولايلزم من الحكم على أحدهما بالبياض نفي الحكم بالسواد على الآخر، أو كان الخمر حلالًا في زمان ثم حرم في زمن آخر، فكل من الحكمين صحيح، وهذا الاختلاف غير الحقيقي ليس اختلافًا في الواقع؛ بل هو اختلاف صوري مبناه تعدده.

ثم الاختلاف الحقيقي ينقسم إلى قسمين، الأول: الاختلاف في الأمر الديني، والثاني في الأمر الدنيوي، ثم الاختلاف في الأمر الدنيوي على قسمين، الأول: الاختلاف عن منشأ صحيح، والثاني: الاختلاف عن مشأ غير صحيح، وكذا الاختلاف في الأمر الديني على نوعين، الأول: الاختلاف في الأصول والثاني: الاختلاف في الفروع، ثم الاختلاف في الفروع ينقسم على قسمين، الأول: الاختلاف عن دليل، والثاني الاختلاف بدون الدليل، وكذلك الاختلاف في الأصول على قسمين، الأول: الاختلاف في الكفر والإيمان، والثاني: الاختلاف في البدعة والسنة، وهذا كله من أقسام الاختلاف الحقيقي.

والاختلاف غير الحقيقي على قسمين، الأول: الاختلاف بفعل العبد، والثاني: الاختلاف بجعل العبد. ثم الثاني على نوعين، الأول: اختلاف الطبائع، والثاني: اختلاف الشرائع، ثم الثاني على قسمين الأول: الاختلاف في الشريعة الواحدة، والثاني: الاختلاف في الشرائع المتعددة، تلك عشرة كاملة، ستة من الاختلاف الحقيقي وأربعة من الاختلاف غير الحقيقي.

الأول: الاختلاف الحقيقي في الأمر الدنيوي عن منشأ صحيح، والثاني: الاختلاف الحقيقي في الأمر الدنيوي بدون منشأ صحيح، والثالث: الاختلاف الحقيقي في الأمر الديني من الفروع عن دليل، والرابع الاختلاف الحقيقي في الأمر الديني من الفروع بدون دليل، والخامس: الاختلاف الحقيقي في الأمر الديني من الأصول كفرا وإسلامًا،

والسادس: الاختلاف الحقيقي في الأمر الديني من الأصول بدعة وسنة، والسابع: الاختلاف غير الحقيقي بفعل العبد، والثامن: الاختلاف غير الحقيقي بجعل الحق باختلاف الطبائع، والتاسع: الاختلاف غير الحقيقي بجعل العبد في الشريعة الواحدة، والعاشر: الاختلاف غير الحقيقي بجعل الحق في الشرائع المتعددة.

وهذه الأقسام كلها من حيث الواقع، وأما من حيث الاحتمال العقلي فهي كثيرة؛ إلا أنه لعدم وقوعها لا فائدة في ذكرها ثم الرد على وقوعها.

الآن نحن نذكر مصداقات هذه الأقسام وأحكامها، وفيه مقدمة وجيزة، وعشرة فصول، وكل فصل محتوٍ على قسم، وخاتمة فيها تنبيهات تشتمل على تفريعات الفصول.

والآن أشرع في المقصود مستعينا بواهب الكرم والجود.

الفصل الأول في بيان القسم الأول من الاختلاف:

وهو أن يكون الاختلاف في الأمر الدنيوي عن منشأ صحيح، كاختلاف الأطباء في طريقة المعالجة بمعنى أن يصف أحد منهم الدواءَ في الطب اليوناني، والثاني في الطب الآلوباثي، والثالث في الطب الفيدكي، أو كانوا متفقين في طريقة المعالجة إلا أنهم اختلفوا في التدبير بسبب اختلافهم في التشخيص ومعرفة المرض، ويعتبر أحدهم بعض التدابير نافعة للمريض ويعده الآخر مضرًا له، ولكل واحد منهم دليل صحيح يستدل به، ويرفض دليل الآخر، أو كاختلاف المحامين في قضية بأن يدخلها أحد منهم في مادة من مواد القانون والآخر في مادة أخرى. وعلى هذا اختلاف أهل الرأي والتجربة في الأحداث اليومية. وهذا قد يكون بالدليل، وقد يكون بتقليد المحقق بمعنى أن دليل المحقق هو دليل المقلد.

وحكم هذا القسم أنه ليس بمذموم في نفسه بشرط أن يكون في الحدود؛ بل إن كان معتمدًا على صحة دليله وضعف دليل الآخر، فالاتفاق على خلاف دليله بمجرد التقليد مذموم، ولأن النفع والضرر في هذا الباب طالما يتعدى إلى الآخرين يعد هذا القسم فردًا من أفراد المشورة التي ورد القرآن والحديث بالترغيب فيها، وجاء الحديث بذم الإشارة بما يخالف ما يميل إليه القلب، قال عليه السلام: «ومن أشار على أخيه بأمر ويعلم أن الرشد في غيره فقد خان». (رواه أبو داود:٣٣٥٧)

فإن تجاوز الحدود كان الاختلاف مذمومًا، كمن لم يرد باختلافه تحقيق المسألة؛ بل قصد التبجح برأيه وقوله، بدون دليل، وهمه تذليل واحتقار المخالف أو غيبته وأذاه، فهذا الاختلاف معيب للعارض المذكور، وإن كان العارض في جانبهما فاختلافهما مذموم، وإن كان في جانب واحد فاختلافه مذموم فقط.

وهذا الاختلاف – الذي يكون مذموما

للعارض المذكور – أيضا مما وردت النصوص من ذم الاختلاف المطلق، ومنه الاختلاف الوارد بيانه لاحقًا في الفصل الثاني. وإنما تذكر النصوص في الفصل الثاني؛ لأن تعيين حقيقة الحمل قبل المحمول أعون على الفهم. ومن هذا الباب ما يقع بين الناس من الاختلاف في حقوقهم، فيسعى كل من الفريقين أن يغلب على الآخر بدليل محتمل؛ لأن كلا منهم يعتبر معذورا مالم يتحقق خطؤه، نعم إذا تحقق خطؤه فهو عاصٍ إن أصر عليه، وإن تنازل عن حقه وقطع التنازع فله ثواب عظيم، كما رواه الترمذي عن أنس قال، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «من ترك الكذب وهو باطل بني له في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسط الجنة» وهذا حديث حسن (سنن الترمذي:١٩٩٣).

وأما إن لزم التنازل عن دعواه والاتفاق مع المخالف محذورا شرعيًّا فإنه لايجوز، مثلًا: أقر الزوج بالطلاق أمام الزوجة، ثم أنكر، فلايجوز لها أن تسلم نفسها إليه، لماروي عن عمرو بن عون المزني عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرَّم حلالا أو أحلَّ حرامًا» رواه الترمذي:١٣٥٢، وابن ماجه:١٥٠٦، وأبوداود:٣٥٩٤).

هذا حكم المبتلى به، وأما غيره فلايجوز له أن يقف بجانب أحد لاحتمال الصدق في كل من الجانبين مالم يظهر الحق بدليل شرعي. إذا ثبت أن أحدهما على الحق وجب نصره على التفصيل التالي:

فإن كان الناصر حاكمًا أو مأمورا من الحاكم فالنصر باليد، وإن لم يكن حاكمًا أو لم يخف الفتنة فالنصر بالوعظ باللسان، وإن خاف الفتنة الدنيوية أو الدينية فالنصر بالقلب، بأن يرى فعله سيئًا، ويدعو لصاحب الحق، وستأتي النصوص التي تخصه في الفصل التالي.

الفصل الثاني في بيان القسم الثاني من الاختلاف:

وهو الاختلاف في أمر دنيوي بدون منشأ صحيح، وإنما الباعث هو هوى النفس. وحكمه ظاهر أي مذموم البتة، سواء كان من جانب أو من جانبين، ونذكر الآن بعض النصوص في ذم الاختلاف، وفي الأمر الذي وعدته في الفصل الأول:

قال الله تعالى: (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال:٤٦]، وقال تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)[الإسراء:٣٦].

وقال تعالى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ إلى قوله لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ إلى قوله إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) [الحجرات: ١٠-١٢).

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال: «لا يكون لمسلم أن يهجر مسلما فوق ثلاثة، فإذا لقيه سلم عليه ثلاث مرار كل ذلك لا يرد عليه فقد باء بإثمه»(أبوداود:٤٩١٣).

وعن أبي هريرة، عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا (البخاري:٦٠٦٤، مسلم:٢٨).

وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة (رواه أبوداود:٤٩١٩)، و رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٥٠٩).

وعن الزبير، قال قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد و البغضاء، هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر؛ ولكن تحلق الدين (رواه الترمذي:٢٥١٠؛ أحمد:١٤١٢).

وعن أبي صرمة صاحب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن النبي ﷺ أنه قال: «من ضار أضر الله به، ومن شاق شاق الله عليه» (رواه أبوداود:٣٦٣٥؛ وابن ماجه:٢٣٤٢؛ والترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب (١٩٤٠).

وعن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ملعون من ضار مؤمنًا أو مكر به (رواه الترمذي، و هذا حديث غريب:١٩٤١).

وعن ابن عمر، قال:صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوت رفيع، فقال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه، ولوفي جوف رحله (رواه الترمذي: ٢٠٣٢).

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم» (أبوداود: ٤٨٧٨).

وعن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «حسن الظن من حسن العبادة» (رواه أبوداود:٤٩٩٣).

وعن عائشة رضي الله عنها، أنه اعتل بعير لصفية بنت حيي، وعند زينب فضل ظهر، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لزينب: «أعطيها بعيرا». فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية؟ فغضب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر(رواه أبو داود:٤٦٠٢).

فائدة:

في آخر الحديث دليل لتقييد أول الأحاديث، وكذا يدل عليه حديث كعب كما في «اللمعات» عن السيوطي: ومن خاف من مكالمة أحد و صلته ما يفسد عليه دينه، أو يدخل مضرة في دنياه يجوز له

مجانبته والبعد عنه، و رب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية» (رسالة العذر والنذر؛ ولمعات التنقيح: ٢٨٦/٨، ط: دار النودار دمشق).

وعن أبي سعيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه سنن النسائي:٥٠٠٨؛ مسلم:٧٨؛ أبوداود:١١٤٠).

وعن بنت واثلة بن الأسقع، أنها سمعت أباها، يقول: قلت: يا رسول الله، ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم (رواه أبوداود:٥١١٩).

وعن سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، قال: خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «خيركم المدافع عن عشيرته، ما لم يأثم» (رواه أبوداود:٥١٢٠).

وقيل لأسامة لو أتيت فلانا فكلمته، قال: إنكم لترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم، إني أكلمه في السر دون أن أفتح بابا لا أكون أول من فتحه (البخاري:٣٢٦٧).

وعن أبي أمامة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا رأيتم أمرًا لا تستطيعون تغييره فاصبروا حتى يكون الله هو الذي يغيره» (رواه شعب الإيمان:٩٣٤٥).

الفصل الثالث في بيان القسم الثالث من الاختلاف:

وهو الاختلاف في أمر ديني من الفروعات بدليل صحيح سواء كان الدليل نصًّا أو اجتهادًا شخصيًّا أو اجتهاد عالمٍ متبوع صالح للمتابعة أو فتواه، وهذا هو الاختلاف الذي عُدَّ رحمة للأمة الحق، واستمر منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأيام الأخيرة، ومبناه أسباب عديدة مصرحة في رسالة «رفع الملام» لابن تيمية، وتأليفات الشيخ المحدث ولي الله الدهلوي رحمهما الله تعالى وغير ذلك من كتب الأصول، ومنها:

(١) أن تختلف النصوص دلالة في مسألة من المسائل بحيث تعذر جمعها، ولم يتفقوا على نسخها، فأخذ بعض المجتهدين بدليل وترك الدليل الأخر باقتضاء القواعد الكلية، والآخر ذهب إلى خلافه. وهذه القواعد الكلية وإن كانت مأخوذة من النصوص إلا أنها اجتهادية، فيمكن للمجتهد أصالة وللمقلد تبعًا أن يأخذ بأحد الدليلين، مثلًا تقرر في كتب الأصول أن المحرم مقدم على المبيح، وأن المثبت مقدم على النافي، وأن بعض الوقائع أكثر ظهورا على الرجال من النساء كما في قصة الكسوف، وأن العموم لا وجود له في حكاية الفعل وغير ذلك. وهذه القواعد كلها عند الحنفية، وأما المجتهدون الآخرون فلهم قواعد ثابتة عندهم كدلالة التقييد بالوصف أو التعليق على نفي الحكم عما سواه، أو حمل المطلق على المقيد، أو دلالة القرآن في النظم على القرآن في الحكم وغيرها، فيمكن أنهم رجحوا أحد النصوص على الآخر بهذه القواعد،

فيقع الاختلاف بينهم.

(٢) أن يبلغ أحدَ المجتهدين نص واحد من النصوص المختلفة دلالة، وبلغ الآخر نص آخر أو لم يصل أحدهم نص من النصوص، فأخذ بالقياس فيها فحدث الاختلاف بينهما. وعدم بلوغ النص له وجهان: الأول: أنه لم يصل إليه البتة، والثاني: وصل ولكن بسند ساقط في الاحتجاج، وإذا تحققت الصورة الثانية عنده بنفسه أو بواسطة عالم موثق وجب عليه ترك القياس.

(٣) قد يقع الاختلاف في ترجيح الأدلة باختلاف المجتهدين بناء على ما يحمل الرواة من الصفات من كونهم أكثر ثقة أو حفظا أو فقها أو طول ملازمة وصحبة وأمثال ذلك.

(٤) قد تكون النصوص مختلفة في الدلالة ظاهرا إلا أن الجمع بينها ممكن، فيجعل مجتهد مدلول أحد النصوص حكمًا أصلًا بالقواعد الكلية أو القرينة القولية أو الحالية أو الاجتهاد الشخصي، ويؤول النص الآخر أو يحمله على عارض، ويذهب الآخر إلى خلاف ذلك، فينشأ الاختلاف، كما في رفع اليدين في الصلاة، فإن الأحاديث فيه مختلفة، فذهب الحنفية إلى ترجيح عدم رفع اليدين لقوله عليه السلام لما رآهم رافعي أيديهم عند السلام: «اسكنوا في الصلاة» (رواه أبوداود:١٠٠١)، فثبت عندهم أن الأصل هو السكون في الصلاة، وحملوا أحاديث رفع اليدين على الإعلام بالأصم أو البعيد، وخالفهم الشافعية وقالوا برفع اليدين لما أن الصلاة عندهم عبادة وجودية و رفع اليدين أمر وجودي وعدم رفع اليدين أمر عدمي، فالرفع هو الأصل عندهم، وحملوا نصوص عدم رفع اليدين على الجواز، فعلم من هذا أن صحة الصلاة ليست موقوفة على رفع اليدين بالاتفاق.

(٥) قد تكون النصوص متفقة في المدلول إلا أن محمل النص مختلف، فحمله مجتهد على شيء بالقواعد أو الاجتهاد الشخصي وخالفه آخرون، كما ورد النهي في الحديث عن الجمع بين البسر والتمر للانتباذ، فحمله أصحاب الظواهر على الجمع المطلق، وجعلوا الجمع بين الأختين أمرًا تعبديًّا عندما جعله الفقهاء معلولًا وأباحوا الجمع بارتفاع العلة سواء كانت العلة احتمال سرعة التغير أو مراعاة المساكين أيام الجدب والقحط.

(٦) اختلف المجتهدون في أقسام الإجماع، فبعض الأقسام حجة عند البعض دون غيرهم. وهذا أيضا من أسباب الاختلاف، كالإجماع الذي سبقه الاختلاف، أو الإجماع الذي ليس فيه دليل ظني.

(٧) قد تكون المسألة قياسية، لا نص فيها ولا إجماع، فهذا أيضا من أسباب الاختلاف، فإن المجتهدين وقع فيهم الاختلاف في وجه القياس، فاختلف الحكم عندهم. وهذا كثير في المسائل الفقهية، وحكم ذلك أنه مقبول ومحمود بإجماع علماء

الأمة، وهو محمل الأحاديث وأقوال السلف الآتية:

وعـن عمـر بـن الخطـاب -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- قـال: سـمعت رسـول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- يقـول: «سـألت ربي عـن اخـتلاف أصـحابي مـن بعـدي، فـأوحى إلي: يامحمـد! إن أصـحابك عنـدي بمنزلـة النجوم في السماء، بعضها أقوى من بعض، ولكل نور، فمن أخذ بشيء مما هم عليه من اختلافهم فهو عنـدي عـلى هـدى، قـال: وقـال رسـول الله ﷺ أصـحابي كـالنجوم، فبـأيهم اقتـديتم اهتـديتم. رواه رزين (مرقاة المفاتيح:٦٠١٨).

وفي المـدخل لـه -أي للبيهقـي- مـن حـديث سفيان عن أفلح بن حميد عن القاسم بن محمد قال: اختلاف أصحاب محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رحمة لعباد اللَّه. ومن حديث قتادة أن عمر بن عبد العزيز كان يقول: «ما سرني لو أن أصحاب محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يختلفوا؛ لأنهم لـولم يختلفوالم تكـن رخصة. ومـن حديث الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد قال: أهل العلم أهل توسعة. وما برح المفتون يختلفون فيحل هذا، ويحرم هذا فلا يعيب هذا على هذا إذا علم هذا (المقاصـد الحـسنة للـسخاوي:١/ ٧٠، دارالكتـاب العربي بيروت).

وكان اختلاف موسى وهارون عليهما السلام في أمر بني إسرائيل من هذا القبيل، وغضب موسى عليه السلام كـان قبل العلـم بوجه اجتهـاد هـارون عليه السلام.

ومن أحكام هذا القسم من الاختلاف أنه إذا كـان محمـودا ومقبـولا فلاتجـوز العـداوة والبغـضاء وتـضليل أحـد وتفسيقه كـما هـو دأب الغـلاة كتابـة وخطابة اليوم. وهي بدعة شنيعة ومعصية ومخالفة لما كان عليه السلف الصالح.

الفصل الرابع في بيان القسم الرابع من الاختلاف:

هـو الاخـتلاف في الأوامـر والنـواهي الفرعيـة بدون دليل كما هو عادة المفكرين الجدد اليوم؛ فإنهم لا يدرسـون العلـم الـديني، ويناقـشون في المـسائل الدينيـة بـدون دليـل، ويـرون الآراء الشخـصية نـصًا قاطعا، ويخالفون العلماء، وهـذا الاخـتلاف مـذموم ومعصية، وردت في ذمه الأحاديث، منها ما يلي:

عـن عبـد الله بـن عمـرو بـن العـاص قـال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسـا جهـالا، فـسئلوا فـأفتوا بغـير علـم، فـضلوا وأضــلوا»، متفــق عليــه (رواه البخــاري: ١٠٠؛ مسلم:١٣).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمـور بـرأيهم يحرمـون الحـلال، ويحلـون الحـرام» (رواه في مسند البزاز: ٢٧٥٥).

وعـن عبـد الله بـن عمـرو بـن العـاص، قـال:

سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «لم يزل أمر بني إسرائيل معتدلا حتى نشأ فيهم المولدون، وأبناء سبايا الأمم، فقالوا بالرأي، فضلوا وأضلوا (سنن ابن ماجه:٥٦).

وعَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَال: أَوَّلُ مَنْ قَاس إِبْلِيسُ، وَمَا عُبِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِلَّا بِالْمَقَايِيسِ(سنن الدارمي:١٩٥) يعني قوله تعالى: خلقتني من نار وخلقته من طين، (المراد القياس غير المستند إلى الشرع. (من جمع الفوائد).

الفصل الخامس في بيان القسم الخامس من الاختلاف:

هو الاختلاف في الأصول الدينية التي هي بمنزلة الإسلام والكفر، وحكمه ظاهر أنه واجب على أهل الإسلام أن يخالفوا أهل الكفر ولا يخالطوهم إلا بالضرورة الشديدة أو المصلحة الشرعية، وأما المعاملات والمعاشرة فهي خارجة عن هذا الحكم. وتفصيله مذكور في موضعه، وكثيرًا ما أمر القرآن الكريم أهل الإسلام بأن يخالفوا أهل الباطل في الدين، كقوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) [المائدة:٤٨]، وقوله تعالى: (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) [هود:١١٣]، وغيرهما من الآيات.

ثم إن الحكم يختلف في المسالم وغير المسالم كما ذكر في سورة الممتحنة، وأما حكم حسن الخلق والتحرز من الشدة في التبليغ والمناظرة فهو مشترك فيه بين المسالم وغيره، قال تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [العنكبوت:٤٦] وقال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل:١٢٥] وقال تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [الإسراء:٥٣]، وقال تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ)[التوبة:٦].

وكذا ورد الذم و الوعيد لأهل الباطل على اختلافهم مع أهل الحق، كقوله تعالى: (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) [البقرة: ١٧٦]، وقال تعالى: (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) [هود:١١٨]، وقال تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [يونس:٩٣].

الفصل السادس في بيان القسم السادس من الاختلاف:

هو الاختلاف في الأصول الدينية التي هي بمنزلة السنة والبدعة، وحكمه ما سبق في الفصل الخامس سوى الأحكام المخصوصة بالكفار، وقد ورد ذكر هذا الاختلاف في الأحاديث، منها ما يلي:

(١) عن أن عبد الله بن عمرو، قال: هجرت إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوما، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» (رواه مسلم:٢٦٦٦).

(٢) عن العرباض بن سارية- في حديث

طويل قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «... فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم، فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ» (رواه الترمذي:٢٦٧٦، وابن ماجه:٤٣).

(٣) عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي» (رواه الترمذي:٢٦٤١).

(٤) عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «إن الله لايجمع أمتي- أو قال: أمة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار. (رواه الترمذي:٢١٦٧).

(٥) عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذه الآية: ما ضربوه لك إلا جدلا؛ بل هم قوم خصمون (رواه الترمذي:٣٢٥٣؛ ابن ماجه:٤٨).

(٦) عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبرا؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» (رواه أبو داود:٤٧٥٨؛ أحمد:٢١٥٦١).

(٧) عن إبراهيم بن ميسرة، قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»(شعب الإيمان:٩٠١٨).

فائدة:

المراد بالبدعة ما اتفق أهل الحق على كونه بدعة، وما لم يكن عليه اتفاق أهل الحق ومساغ فيه للاجتهاد فحكمه سبق في الفصل الثالث، وهو محمل نص إرشاد الطالبين هذا: بالإضافة إلى ذلك أن ما هو بدعة في بعض أعمالهم هو اجتهاد لخطأ، والمجتهد معذور (حواشي الباب السابع من تعليم الدين).

فائدة:

واستثناء المعاملات والمعاشرة ملحوظ فيه أيضًا؛ بل هو أولى؛ لما رواه مسلم عن عائشة أن رجلا استأذن على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: «ائذنوا له، فلبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة». فلما دخل عليه ألان له القول. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، قلت له الذي قلت، ثم ألنت له القول؟ قال: «يا عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، من ودعه، أو تركه الناس اتقاء فحشه»(رواه مسلم:٧٣).

قال النووي: «وفي هذا الحديث مداراة من يتقى فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن

يحتـاج النـاس إلى التحـذير منـه» (شرح النـووي: ١٦/ ١٤٤، دار إحياء التراث العربي بيروت).

الفصل السابع في بيان القسم السابع من الاختلاف:

هو الاختلاف غير الحقيقي المتعلق بفعل عبد - وقد مر في المقدمة تفسير الاختلاف غير الحقيقي وأن الاخـتلاف غـير الحقيقـي لـيس بـاختلاف في الواقـع؛ وإنـما هـو اخـتلاف في الظـاهر وحقيقتـه التعـدد-. ومـن الأمثلـة عـلى هـذا النـوع مـن الاخـتلاف: اخـتلاف العقـلاء وأهـل التجربـة في وسائل الـرزق والحِـرَف والمِهَـن، فبعـضهم مارسـوا الزراعة، وبعضهم اشتغلوا بالتجارة، وبعضهم بغير ذلـك مـن الوظـائف والمحامـاة والطباعـة و المقاولات، مما يكون المحترف فيه أجيرا مشتركًا، فظاهر أن الاختلاف ليس حقيقيًّا؛ فليست حرفة من الحـرف تنفـي كـون الحرفـة الأخـرى مـن أسـباب المعـاش، ولا تـرجح إحـداها عـلى الأخـرى عـلى الإطلاق.

والحاصل أنه لا تعارض في مقاصدها، فالناس كلهـم اختـاروا وسـيلة للـرزق بنـاءً عـلى مـصالحهم، وهـذا معنى عـدم الاختلاف الحقيقي، ولا اختلاف في أن هذه الوسائل كلها من أفعال العباد.

ومـن ذلـك اخـتلاف المـشايخ في التـدابير التـي اختاروهـا لإصـلاح النفس، فكل شيخ منهم اختـار تـدبيرا خاصـا حـسب اسـتعداد المـسترشد، ولا تعارض بينها. وحكم ذلك أنه ليس بمحذور لِما أنه ليس اختلافا في الواقع وإنما هو التعدد.

ومـن ذلـك اخـتلاف داود وسـليمان عـليهما السلام في قصة الحرث المذكورة في القرآن الكريم، وقصة القضاء بالابن للكبرى والصغرى المذكورة في الـصحيحين (رواه البخـاري:٦٧٦٩؛ مسلم:١٧٢٠).

الفصل الثامن في بيان القسم الثامن من الاختلاف:

هـو الاخـتلاف غـير الحقيقـي المتعلـق بفعـل العبـاد والتكـوين الـذي قيـل لـه اخـتلاف الطبـائع، كـالاختلاف في صـور وطبـائع وألـوان المخلوقـات وغيرها التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات:

قال الله تعالى: (أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِـنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ كَذَلِكَ)[فاطر:٢٧-٢٨].

وقال تعالى: (وَمِـنْ آيَاتِـهِ خَلْـقُ الـسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْـتِلَافُ أَلْـسِنَتِكُمْ وَأَلْـوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) [الروم:٢٢].

وقال تعالى: (وَالنَّخْـلَ وَالـزَّرْعَ مُخْتَلِفًـا أُكُلُهُ)[الأنعام:١٤١].

وقال تعالى: (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَـلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا) [الشورى:٥٠].

وقال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَـقَ كُلَّ دَابَّـةٍ مِـنْ مَـاءٍ

فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ)[النور:٤٥].

وقال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [آل عمران:١٩٠].

وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [الأنبياء:٣٣].

وحكم ذلك أنه لا كلام في صحته ومطابقته للمصلحة والحكمة، وبالرغم من أن هذا القسم ليس له شأن بفعل العباد الاختياري، كما هو في الأقسام السالفة المتعلقة بالتشريع إلا أننا بيناه لإزالة خطأ سنذكره في التنبيه الثامن من الخاتمة.

الفصل التاسع في بيان القسم التاسع من الاختلاف:

هو الاختلاف غير الحقيقي الثابت بفعل العباد المتعلق بالتشريع في شريعة واحدة، كاختلاف القراءات في القرآن، (فالحكم فيه مختلف باختلاف الحيثية)، إنه مطابق للحكمة والمصلحة من حيث إن التشريع فعل الحق تعالى كما سبق من قبل، ومن حيث إن العمل به فعل العباد، فالحكم أن تكون جميع القراءات متساوية في كونها قراءة للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويتبع كل واحد ما يشاء، وترجيح أحدها على الأخرى تحكم وعناد، وإن وقع الاختلاف في هذا القسم، فهو مذموم وداخل في القسم الرابع.

ومن هذا القبيل ما أجاز النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في بداية الإسلام من قراءة القرآن على سبعة أحرف، وإن كانت مختلفة من حيث إن نزول القراءة حقيقي، وهذا كله في لغات قريش، وإن نزول الحروف حكمي، هو نزول الإذن بها فقط.

الفصل العاشر في بيان القسم العاشر من الاختلاف:

هو الاختلاف غير الحقيقي الثابت بجعل الحق المتعلق بالتشريع في شرائع متعددة، كاختلاف الشرائع التي أُوتيها مختلف الأنبياء؛ فإن الشريعة المتأخرة ناسخة للمتقدمة. وحكمه أنه مطابق للحكمة من حيث إن التشريع فعل الحق تعالى، وأما من حيث العهد والزمان فإن الاعتقاد بحقيتها فرض و جزء من الإيمان. و لايجب العمل إلا بالشريعة التي تم التكليف بها، كما يكلفنا الله تعالى الشريعة المحمدية، فإنها ناسخة لجميع الشرائع.

وإن كان الحكم ناسخًا للحكم الآخر في شريعة واحدة، كالشريعة المحمدية فهو في حكم الشرائع المتعددة. ويعتبر هذا الاختلاف غير حقيقي، وإن كان حقيقيا في الظاهر بسبب الاختلاف في الحل والحرمة، ومن ثم قيل: إن كلا من الحكمين يمكن اجتماعهما في الصحة والصدق بسبب الاختلاف في الزمان، أي لا تعارض بينهما لعدم الوحدة الزمانية، هو المراد بالاختلاف الحقيقي كما سبق في المقدمة، وتمت عشرة فصول بحمد الله تعالى.

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

سورة إبراهيم نموذجًا

بقلم: أبو عاصم المباركفوري

القرآن كتاب الله الخالد الذي لايأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، والكتاب المعجز الذي لم يأت أحد بمثله - كما تحدى به- على كر الأيام و مر الليالي. و يتجلى إعجازه في عذوبة ألفاظه، وسحر كلماته، وبداعة أسلوبه وتراكيبه، وبلاغة معانيه، وفصاحة ألفاظه. ونتناول في هذه الدراسة جانبًا من هذا الإعجاز، وهو الإعجاز البياني الوارد في سورة إبراهيم.

١- قال الله تعالى: الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (إبراهيم:١)

فإن قلت: ما فائدة تكرار «إلى» في قوله: إلى صراط العزيز الحميد؟

فالجواب من وجهين:

الأول: ما قاله ابن الأنباري: إن هذا مِثْلُ قول العرب: جلست إلى زيد، إلى العاقل الفاضل، وإنما تُعاد «إلى» بمعنى التعظيم للأمر، قال الشاعر:

إِذَا خَدِرَتْ رِجْلي تَذَكّرْتُ مَنْ لَهَا

فَنَادَيْتُ لُبْنَى بِاسْمِهَا وَدَعَوْتُ

دَعَوْتُ الَّتِي لَوَ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي

لأَلْقَيْتُها من حُبِّها وقضَيتُ

فأعاد «دعوت» لتفخيم الأمر[١].

الثاني: أنه بدل من (النور) بإعادة الجار للمبدل منه لزيادة بيان المبدل منه اهتمامًا به، وتأكيدًا للعامل كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ في سورة الأعراف(٧٥). ولا يضر الفصل بين البدل والمبدل منه بما قبله؛ لأنه غير أجنبي؛ إذ هو من معمولات العامل في المبدل منه على كل حال[٢].

وقال الآلوسي: واستشكل هذا مع الاستعارة السابقة بأن التعقيب بالبدل لا يتقاعد عن التعقيب بالبيان في مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة:١٨٧].

وأجيب بأن الصراط استعارة أخرى للهدى جعل نورًا أولًا لظهوره في نفسه واستضاءة الضلال في مهواة الهوى به، ثم جعل ثانيًا جادة مسلوكة مأمونة لا كبنيات الطرق دلالة على تمام الإرشاد.

وفي الإرشاد: إن إخلال البيان والبدل بالاستعارة إنما هو في الحقيقة لا في المجاز وهوظاهر(٣).

الثالث: يجوزأن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل: إلى أي نور فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(٤).

٢- قال الله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (إبراهيم:٥)

فإن قيل: إن تلك التذكيرات آيات للكل فلماذا خص الصبارالشكور بها؟

قلنا: فيه وجوه:

الأول: أنهم لما كانوا هم المنتفعون بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات إلا لهم كما في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥](٥).

الثاني: لا يبعد أن يقال: الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله إلا لمن كان صابرًا أوشاكرًا أما الذي لا يكون كذلك فلم ينتفع بهذه الآيات(٦).

٣- قال الله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (إبراهيم/٦).

فإن قيل: لم ذكرتعالى في سورة البقرة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ بغير واو وذكره هنا مع الواو؟

أجاب عنه الطبري فقال: أدْخلت الواو في هذا الموضع، لأنه أريد بقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، الخبرُعن أن آل فرعون كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع من العذاب غيرالتذبيح وبالتذبيح. وأما في موضعٍ آخر من القرآن، فإنه جاء بغير الواو: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [سورة البقرة:٤٩]، في موضع، وفي موضع ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [سورة الأعراف: ١٤١]، ولم تدخل الواو فى المواضع التي لم تدخل فيها؛ لأنه أريد بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وبقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾، تبيين صفات العذاب الذي كانوا يسومونهم. وكذلك العملُ في كل جملة أريد تفصيلُها، فبغيرالواو تفصيلها، وإذا أريد العطف عليها بغيرها وغيرتفصيلها فبالواو(٧).

وقال الزمخشري: الفرق أنّ التذبيح حيث طرح الواوجعل تفسيرًا للعذاب وبيانًا له، وحيث أثبت جعل التذبيح غيره؛ لأنه أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر(٨).

وقال ابن عطية: في هذه الآية زيادة الواو في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ وفي البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾

[البقـرة:٤٩] بغـير واوعطـف. فهنـاك فـسرسوء العـذاب بأنه التـذبيح والاستحياء، وهنـا دل بـسوء العذاب على أنواع غيرالتذبيح والاستحياء، وعطف التذبيح والاستحياء عليها(٩).

وقـال الـرازي: قـال تعـالى في سـورة البقـرة: ﴿يُـذَبِّحُونَ﴾ بغير واو؛ لأنه تفسير لقوله: ﴿سُـوءَ العـــذاب﴾ وفي التفسيرلا يحسن ذكر الواو تقول: أتاني القوم زيد وعمرو. لأنك أردت أن تفسرالقوم بهما ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُـضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَـذَابُ﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩] فالآثام لما صار مفسرًا بمضاعفة العذاب لا جرم حذف عنه الواو، أما في هذه السورة فقد أدخل الواوفيه، لأن المعنى أنهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح أيضًا فقوله: ﴿وَيُـذَبِّحُونَ﴾ نوع آخرمن العذاب لا أنه تفسيرلما قبله(١٠).

وقال ابن عاشور: هذه الآية عُطفت فيها جملة (ويذبحون) على جملة ﴿يسومونكم﴾ وفي آية البقرة والأعـراف جعلـت جملـة ﴿يـذبحون﴾ وجملـة ﴿يقتلون﴾ بدون عطف على أنها بدل اشتمال من جملة ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾. فكان مضمون جملة ﴿ويذبحون﴾ هنا مقصودًا بالعدّ كأنه صنف آخرغيرسـوء العـذاب اهتمامًـا بـشأنه، فعطفـه مـن عطف الخاص على العامّ. وعلى كلا النظمين قد حصل الاهتمام بهذا العذاب المخصوص بالذكر، فالقرآنُ حكى مراد كلام موسى عليه السلام من ذكرالعـذاب الأعـم وذكـرالأخص للاهـتمام بـه، وهوحاصل على كلا النظمين. وإنما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة تفنّنًا في إعادة القصة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي، وهو ذكرسوء العذاب مجملًا، وذكرأفظع أنواعه مبيّنًا(١١).

وقال أبوالسعود: ﴿وَيُـذَبِّحُونَ أَبْنَـاءكُمْ﴾ المولودين وإنما عطفه على يسومونكم إخراجًا له عن مرتبة العذاب المعتاد(١٢).

٤- قال الله تعالى: أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـؤُاْ ٱلَّذِيـنَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُـوحٍ وَعَادٍ وَثَمُـودَ وَٱلَّذِيـنَ مِـنۢ بَعْـدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُـمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَـآءَتْهُمْ رُسُـلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَـرَدُّوٓاْ أَيْـدِيَهُمْ فِيٓ أَفْـوَٰهِهِمْ وَقَـالُوٓاْ إِنَّـا كَفَرْنَا بِمَـآ أُرْسِـلْتُم بِـهِۦ وَإِنَّـا لَـفِى شَـكٍّ مِّمَّـا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (إبراهيم/٩).

في الآية بدهيتان:

الأولى

فإن قيل: إنهم قالوا أولًا: إنّا كفرنا بما أرسلتم به، فكيف يقولـون ثانيًا (وإنا لفي شك) والشك دون الكفر؟

أجيب من وجوه:

الأول: بـأنهم لمـا صرحـوا بكفـرهم بالرسـل كلهم حصل لهم شبه توجب الشك لهم فقالوا: إن لم

نـدع الجـزم واليقـين في كفرنـا فـلا أقلّ مـن أن نكـون شـاكين مرتـابين في صـحة نبـوتكم، وعـلى التقـديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم(١٣).

الثـاني: بـادروا أولًا إلى الكفـر وهوالتكـذيب المحض، ثم أخبروا بأنهم في شك وهوالتردد، كأنهم نظروا بعـض نظـر اقتـضى أن انتقلـوا مـن التكـذيب المحض إلى التردد(١٤).

الثالث: هما قولان من طائفتين: طائفة بادرت بالتكذيب والكفر، وطائفة شكت، والشك في مثل ما جاءت به الرسل كفر(١٥).

الرابع: قيل: إن الكفر عدم الإيمان عمن هومن شأنه فكفرنا بمعنى لم نصدق وبذلك فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وذلك لاينافي الشك(١٦).

الثانية

فـإن قيـل: مـا فائـدة وصـف الـشك بالمريـب والريب مرادف للشك؟

أجاب عنه ابن عاشور قائلا: ﴿مريب﴾ تأكيد لمعنى ﴿في شك﴾، والمريب: المُوقع في الريب، وهو مـرادف الـشك، فوصـف الـشك بالمريـب مـن تأكيـد ماهيته، كقولهم: لَيل أَلْيَل، وشِعر شَاعر(١٧).

٥- قال الله تعالى: قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (إبراهيم:١١).

فإن قيل: ما الفرق بين هذه الآية إذ زيد فيها كلمـة ﴿لهـم﴾ في قولـه: ﴿قالـت لهـم رسـلهم﴾ [سورة إبراهيم:١١] وبين الآية التي قبلها إذ قال فيها (قالتْ: رُسُلُهُمْ)؟

قلنا: فرق ابن عرفة بوجهين:

أحـدهما: أن هذه المقالة خاصة بالمكذّبين من قـومهم يقولونهـا لغـيرهم؛ إذ هوجـواب عـن كـلام صدر منهم، والمقالة الأولى يقولونها لهم ولغيرهم، أي للمصدقين والمكذبين(١٨).

وثانيهما: أن وجود الله أمرنظري، فكان كلام الرسـل في شـأنه خطابًـا لعمـوم قـومهم، وأمـا بعْثـة الرسـل فهـي أمـرضروري ظـاهرلا يحتـاج إلى نظـر، فكأنـه قـال: مـا قَـالوا هـذا إلا للمكـذبين لغبـاوتهم وجهلهم لا لغيرهم(١٩).

الثالــث: وأجـاب الأبي أن ﴿أفي الله شـك﴾ خطاب لمن عاند في أمر ضروري، فكأنّ المجيب عن ذلك يجيب به من حيث الجملة ولا يُقبل بالجواب على المخاطب لمعاندته فيجيب وهـومُعْرض عنه بخلاف قولهم: ﴿إن نحن إلا بشرمثلكم﴾ فإنه تقرير لمقالتهم فهم يُقبلون عليهم بالجواب؛ لأنهم لم يبطلوا كلامهم بالإطلاق؛ بل يقررونه ويزيدون فيه اه.

قال ابن عاشور: والحاصل أن زيادة ﴿لهم﴾ تؤذن بالدلالة على توجه الرسل إلى قومهم بالجواب

لما في الجواب عن كلامهم من الدقة المحتاجة إلى الاهتمام بالجواب بالإقبال عليهم إذ اللامُ الداخلة بعد فعل القول في نحو: أقول لك، لام تعليل، أي أقول قولي لأجلك. ثم عطفوا على ذلك تبيينَ أن ما سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين ليس ذلك إليهم، ولكنه بمشيئة الله، وليس الله بمكرَه على إجابة من يتحداه[٢٠].

قال الله تعالى: وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (إبراهيم/١٢).

فإن قلت: سبق الأمر بالتوكل في الآية السالفة فما فائدة تكراره؟

فالجواب من وجوه:

الأول: لاستحداث التوكل، وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُوْنَ﴾ معناه فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم[٢١].

الثاني: أن قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُمْ بسلطان إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ﴾ المراد منه أن الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله تعالى لا عليها، فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها.

وأما قوله في آخر الآية: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ على مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُوْنَ﴾ فالمراد منه الأمربالتوكل على الله في دفع شرالناس الكفار و سفاهتهم، وعلى هذا التقدير فالتكرار غيرحاصل لأن قوله: ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وارد في موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين[٢٢].

الثالث: وجملة ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ يحتمل أن تكون من بقية كلام الرسل فتكون تذييلًا وتأكيدًا لجملة ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فكانت تذييلًا لما فيها من العموم الزائد في قوله: ﴿المتوكلون﴾ على عموم ﴿فليتوكل المؤمنون﴾. وكانت تأكيدًا لأن المؤمنين من جملة المتوكلين. والمعنى: من كان متوكلًا في أمره على غيره فليتوكل على الله، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، فهي تذييل للقصة وتنويه بشأن المتوكلين على الله، أي لا ينبني التوكل إلا عليه[٢٣].

الرابع: وقال ابن عجيبة: قال ابن جزي: «إن قيل: لِمَ كرر الأمر بالتوكل؟ فالجواب عندي: أن قوله: ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ راجع إلى ما تقدم من طلب الكفار: ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾ أي: حجة ظاهرة، فتوكل الرسل في ورود ذلك إلى الله. وأما قوله: ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ فهو راجع إلى قولهم: (ولنصْبرنَّ على ما آذيتمونا) أي: نتوكل على الله في دفع أذاكم» اهـ.

وهو حسن، لكن التعبير بالمتوكلين يقتضي أن التوكل حاصل، والمطلوب الدوام عليه، وقد يقال:

إنما عبَّر ثانيًا بلفظ المتوكلين؛ كراهية إعادة اللفظ بعينه، أي: من كان متوكلًا على الله فإنه الحقيق بذلك(٢٤).

قال الله تعالى: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (إبراهيم/١٣).

فإن قيل: هذا يوهم أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها وهو معلوم استحالته بداهة؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن أولئك الأنبياء عليهم السلام إنما نشؤوا في تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل في أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار؛ بل كانوا في ظاهر الأمر معهم من غير إظهار مخالفة، فالقوم ظنوا لهذا السبب أنهم كانوا في أول الأمر على دينهم؛ فلهذا السبب قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾(٢٥).

الوجه الثاني: أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب في كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه فلعلهم توهموا ذلك مع أنه ما كان الأمر كما توهموه(٢٦).

الوجه الثالث: لعل الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال: إنهم كانوا قبل ذلك الوقت على دين أولئك الكفار(٢٧).

الوجه الرابع: قال صاحب «الكشاف»: العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه، عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال(٢٨).

واعترض في «الفرائد» بأنه لو كان العود بمعنى الصيرورة لقيل إلى ملتنا فتعديته بـ«في» يقتضي أنه ضمن معنى الدخول أي لتدخلن في ملتنا.

ورده الطيبي بأنه إنما يلزم ما ذكرلو كان ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ صلة الفعل، أما إذا جعل خبرًا له؛ لأن «صار» من أخوات «كان» فلا يرد كما في نحو: صار زيد في الدار(٢٩).

الوجه الخامس: لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل إرسالهم على ملة من الملل، ثم إنه تعالى أوحى إليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى وبقي الأقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر، وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الأنبياء أن يعودوا إلى تلك الملة(٣٠).

الوجه السادس: لا يبعد أن يكون المعنى: أو لتعودن في ملتنا، أي إلى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايب ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل، و الله أعلم(٣١).

قال الله تعالى: وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ (إبراهيم/١٤).

فإن قيل: ما فائدة تكرار فعل (خاف) والعطف يغني عنه؟

قال ابن عاشور: وعطف جملة (وخاف وعيد) على ﴿خاف مقامي﴾ مع إعادة فعل ﴿خاف﴾ دون اكتفاء بعطف ﴿وعيدي﴾ على ﴿مقامي﴾؛ لأن هذه الصلة وإن كان صريحها ثناءً على المخاطبين فالمراد منها التعريض بالكافرين بأنهم لا يخافون وعيد الله، ولولا ذلك لكانت جملة ﴿خاف مقامي﴾ تغني عن هذه الجملة، فإن المشركين لم يعبؤوا بوعيد الله و حسبوه عبثًا، قال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ [سورة الحج:٤٧]، ولذلك لم يجمع بينهما في سورة البينة [٨] ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾؛ لأنه في سياق ذكر نعيم المؤمنين خاصة.

وهذه الآية في ذكر إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم، فكان المقام للفريقين، فجمع في جزاء المؤمنين بإدماج التعريض بوعي الكافرين، وفي الجمع بينهما دلالة على أن من حق المؤمن أن يخاف غضب ربه وأن يخاف وعيده، والذين يخافون غضب الله ووعيده هم المتقون الصالحون، فآل معنى الآية إلى معنى الآية الأخرى ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥][٣٢].

قال الرازي: واعلم أنه تعالى ذكر أولًا قوله: ﴿ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ ثم عطف عليه قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فهذا يقتضي أن يكون الخوف من الله تعالى مغايرًا للخوف من وعيد الله، ونظيره: أن حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله، وهذا مقام شريف عال في أسرار الحكمة والتصديق[٣٣].

قال الله تعالى: يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ (إبراهيم/١٧).

قوله: ﴿يتجرّعه﴾ أي: يتكلف أن يبتلعه مرّة بعد مرّة لمرارته وحرارته ونتنه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾، أي: ولا يقدر على ابتلاعه. قال الزمخشري: دخل كاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة؟ كقوله تعالى: ﴿لم يكد يراها﴾ (النور:٤٠)، أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها؟ فإن قيل: كيف الجمع على هذا الوجه بين ﴿يتجرّعه﴾ و ﴿لا يكاد يسيغه﴾؟

أجيب بجوابين:

أحدهما: أنّ المعنى ولايسيغ جميعه كأنه يتجرّع البعض وما أساغ الجميع[٣٤].

الثاني: أنّ الدليل الذي ذكر إنما دل على وصول ذلك الشراب إلى جوف ذلك الكافر؛ لأنّ ذلك ليس بإساغة؛ لأنّ الإساغة في اللغة إجراء

الـشراب في الحلـق واسـتطابة المـشروب، والكـافر يتجرّع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أي: لا يستطيبه ولايشربه شربًا بمرة واحدة، و على هذين الوجهين يصح حمل (لا يكاد) على نفي المقاربة(٣٥).

الثانية

فإن قلت: عذاب أهل النارمن وجوه كثيرة، فلم خص هذه الحالة بالذكر؟

فالجواب: يشبه أن تكون هذه الحالة أشد أنواع العذاب فخصص بالذكرمع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾(٣٦).

قال الله تعالى: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (إبراهيم/٢٦).

فإن قيل: الاجتثاث من انعدام القرار فما فائدة قوله: (ما لها من قرار)؟

أجاب عنه الرازي فقال: قوله: (ما لها من قرار)، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية، والمعنى أنه ليس لها استقرار. يقال: قرالشيء قرارًا كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غيرثابت(٣٧).

وقال ابن عاشور: وجملة (ما لها من قرار) تأكيد لمعنى الاجتثاث؛ لأن الاجتثاث من انعدام القرار(٣٨).

قال الله تعالى: يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (إبراهيم/٢٧).

فإن قلت: ما فائدة إظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؟

أجاب عنه ابن عاشور قائلا: وإظهار اسم الجلالة في ﴿ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ لِقصد أن تكون كل جملة من الجمل الثلاث مستقلة بدلالتها حتى تسيرمسيرالمثَل(٣٩).

قال الله تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾.

فإن قيل: ما فائدة تكرر فعل(سخر) في بيان هذه النعم والعطف يغني عنه؟

فالجواب أن في إبراز كل من هذه النعم في جملة مستقلة تنويهًا لشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر(٤٠).

قال الله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (إبراهيم/٣٥).

فإن قيل: أي: فرق بين قوله: ﴿اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾ [البقرة:١٢٦] وبين قوله في هذه الآية: ﴿اجعل هذا البلد آمنًا﴾ ومافائدة زيادة اللام فيها؟

أجيب من وجوه:

الأول: بـأنّ المـسؤول في الأوّل أن يجعلـه مـن جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها، وهي الخوف ويجعل لها تلك الصفة، وهي الأمن كأنه قال: هوبلد مخوف فاجعله آمنًا(٤١).

وحكى الآلوسي قول الزمخشري هذا ثم قال: وتحقيقه أنك إذا قلت: اجعل هذا خاتمًا حسنًا فقد أشرت إلى المادة طالبًا أن يسبك منها خاتم حسن؛ وإذا قلت: اجعل هذا الخاتم حسنًا فقد قصدت الحسن دون الخاتمية، وذلك لأن محط الفائدة هو المفعول الثاني لأنه بمنزلة الخبر.

وإلى هذا يرجع ما قيل في الفرق أن في الأول سؤال أمرين: البلدية والأمن، وهٰهنا سؤال أمر واحد وهو الأمن. واستشكل هذا التفسير بأنه يقتضي أن يكون سؤال البلدية سابقًا على السؤال المحكي في هذه السورة وأنه يلزم أن تكون الدعوة الأولى غيرمستجابة.

وقال في الكشف: والتفصي عن ذلك إما بأن المسؤول أولًا: صلوحه للسكنى بأن يؤمن فيه أهله في أكثرالأحوال على المستمرفي البلاد؛ فقد كان غيرصالح لها بوجه على ما هوالمشهور في القصة، وثانيًا: إزالة خوف عرض كما يعتري البلاد الآمنة أحيانًا، وإما بالحمل على الاستدامة و تنزيله منزلة العاري عنه مبالغة أوبأن أحدهما أمن الدنيا والآخر أمن الآخرة أو أن الدعاء الثاني صدر قبل استجابة الأول، وذكر بهذه العبارة إيماء إلى أن المسؤول الحقيقي هو الأمن والبلدية توطئة لا أنه بعد الاستجابة عراه خوف، وكأنه بنى الكلام على الترقي فطلب أولًا أن يكون بلدا آمنًا من جملة البلاد التي هي كذلك، ثم لتأكيد الطلب جعله مخوفًا حقيقة فطلب الأمن؛ لأن دعاء المضطر أقرب إلى الإجابة ولذا ذيله عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّى أَسْكَنتُ﴾ [إبراهيم:٣٧] إلخ اه.

وهو مبني على تعدد السؤال وإن حمل على وحدته وتكرير الحكاية كما استظهره بعضهم، واستظهر آخرون الأول لتغاير التعبير في المحلين، فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين، وقد حكي أولًا، واقتصر هٰهنا على حكاية سؤال الأمن؛ لأن سؤال البلدية قد حكي بقوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:٣٧]، إذ المسؤول هويها إليهم للمساكنة كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا للحج فقط، وهو عين سؤال البلدية وقد حكي بعبارة أخرى على ما اختاره بعض الأجلة أو لأن نعمة الأمن أدخل في استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على إغفاله على ما قيل، وهذه الآية وما تلاها أعني قصة إبراهيم عليه السلام على ما نص عليه صاحب الكشف واردة على سبيل الاعتراض مقررة لما حث عليه من الشكر

بـالإيمان والعمـل الـصالح وزجرعنـه مـن مقـابلهما مـدحًا فيهـا دعـوة هـؤلاء النـافرين بلـسان اللطـف والتقريب مؤكدة لجميع ما سلف أشد التأكيد(٤٢).

الثـاني: ماقـال أبوالـسعود: «إن المـسؤولَ هنـاك البلديةُ والأمنُ معها، وها هنا الأمنُ فقط حيث جُعل هو المفعولَ الثانيَ للجعل وجُعل البلدَ صفةً للمفعول الأول، فإن حُمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سـأل أولًا كِـلا الأمـرين فاسـتُجيب لـه في أحـدهما وتأخر الآخرُ إلى وقته المقدّر لما يقتضيه من الحكمة الداعيةِ إليه، ثم كَرّر السؤالَ كما هو المعتاد في الدعاء والابتهـالِ، أو كـان المـسؤولُ أولًا مجـردَ الأمـنِ المصحِّح للسكن كما في سائر البلاد وقد أجيب إليه، وثانيًا الأمنَ المعهودَ أو كان هو المسؤولَ فيهما وقد أجيب إليه أيضًا؛ لكن السؤالَ الثانيَ للاستدامة، والاقتصارُ على ذلك لأنه المقصودُ الأصلي أو لأن المعتادَ في البلدية الاستمرارُ بعد التحقق بخلاف الأمن، وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادرُ؛ فالظاهرُ أن المسؤول كِلا الأمرين، وقد حكي أولًا واقتُصر هاهنا على حكاية سؤال الأمنِ لا لمجرد أن نعمةَ الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر فذِكرُه أنسبُ بمقام تقريعِ الكفرة على إغفاله كما قيل؛ بل لأن سؤال البلدية قد حكي بقوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إذ المسؤولُ هُوِيّتُها إليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط، وهو عينُ سؤال البلدية قد حكي بعبارة أخرى وكان ذلك أولَ ما قدِم عليه السلام مكةَ»(٤٣).

الثالـث: وفرَّق السهيلي: بأن النبي ﷺ كان بمكة حين نزول آية إبراهيم، لأنها مكية؛ فلذلك قال فيه: «البلد»؛ بلام التعريف التي للحضور، بخلاف آية البقرة، فإنما هي مدنية، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها، فلم يُعرفها بلا تعريف الحضور. هـ.

قال ابن جزي: وفيه نظر؛ لأن ذلك كان حكاية عن إبراهيم عليه السلام، ولا فرق بين كونه بالمدينة أو بمكة. اهـ.

قلت - القائل ابن عجيبة-: لانظر فيه؛ لأن الحق تعالى لم يحك لنا قصص الأنبياء بألفاظهم، وإنما ترجم عنها بلسان عربي، فينزل على رعاية مقتضى الحال. ولذلك اختلفت الألفاظ في قصص الأنبياء، لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال، من تعريف وتنكير، و اختصار وإطناب. وقد ذكر أبوالسعود في سورة الأعراف ما يؤيد هذا، فانظره. والله تعالى أعلم(٤٤).

الرابع: وكأن هذا الدعاء صدر منه بعد أن سكن الناس مكة وصارت مدينة، والذي في البقرة كان حيث وضع ابنه مع أمه وهي خالية عن ساكن، فدعا أن يجعلها الله بلدًا، وأن يجعلها بعد ذلك موصوفة بالأمن، وهو سكون النفس إلى زوال الضر(٤٥).

الثانية:

فإن قيل: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة في قوله: ﴿واجنبني﴾ عن عبادة الأصنام؟

أجيب من وجوه:

الأول: قال الزجاج: معناه ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال: ﴿و اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨] أي ثبتنا على الإسلام.

وقال الرازي: ولقائل أن يقول: السؤال باق؛ لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال(٤٦).

الثاني: أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه ذكر ذلك هضمًا للنفس وإظهارًا للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب(٤٧).

الثالث: أن الصوفية يقولون: إن الشرك نوعان: شرك جلي وهوالذي يقول به المشركون، وشرك خفي وهوتعليق القلب بالوسائط و بالأسباب الظاهرة والتوحيد المحض هوأن ينقطع نظره عن الوسائط ولا يرى متصرفًا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي، والله أعلم بمراده(٤٨).

وتعقبه الآلوسي قائلا: ويرد على هذا الأخير أنه يعود السؤال عليه فيما أظن؛ لأن النظر إلى السوى يحاكي الشرك الذي يقول به المشركون عند الصوفية فقد قال قائلهم:

ولو خطرت لي في سواك إرادة

على خاطري سهوًا حكمت بردتي

ولا أظن أنهم يجوزون ذلك للأنبياء عليهم السلام(٤٩).

الرابع: وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أن يعبد صنمًا؟! لكن هذه الآية ينبغي أن يقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة(٥٠).

الخامس: قال الآلوسي: والجواب الصحيح عندي ما قيل: إن عصمة الأنبياء عليهم السلام ليست لأمرطبيعي فيهم؛ بل بمحض توفيق الله تعالى إياهم وتفضله عليهم، ولذلك صح طلبها وفي بعض الآثار أن الله سبحانه قال لموسى عليه السلام: يا موسى! لا تأمن مكري حتى تجوز الصراط.

وأنت تعلم أن المبشرين بالجنة على لسان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام كانوا كثيرًا ما يسألون الله تعالى الجنة مع أنهم مقطوع لهم بها، ولعل منشأ ذلك ما قيل لموسى عليه السلام فتدبر(٥١).

قال الله تعالى: رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ (إبراهيم:٤١).

لقائل أن يقول: طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على أنه كان قد صدر الذنب عنه وإن كان قاطعًا بأن الله يغفر له فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعًا بحصوله؟

والجواب من وجهين:

الأول: المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته(٥٢).

الثاني: ﴿رَبَّنَا اغفر لِي﴾ أي ما فرط مني مما أعده ذنبًا(٥٣).

قال الله تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (إبراهيم:٤٢).

فإن قيل: كيف يليق به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحسب الله موصوفًا بالغفلة وهو أعلم الناس به؟

أجيب من وجوه:

الأوّل: أنّ المراد به التثبت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلًا كقوله: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ [الأنعام:١٤]، ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣]، كما جاء في الأمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء:١٣٦](٥٤).

وقال الآلوسي: وتعقب الوجه الأول بأنه غير مناسب لمقام النبوة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا يتوهم منه عدم الدوام على ما هوعليه من عدم الحسبان ليثبت، وفيه نظر(٥٥).

وقال ابن عاشور: وصيغة (لا تحسبن) ظاهرها نهي عن حسبان ذلك. وهذا النهي كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهي عنه في المقام الذي من شأنه أن يثير للناس ظَنّ وقوع المنهي عنه لقوة الأسباب المثيرة لذلك. وذلك أن إمهالهم وتأخير عقوبتهم يشبه حالة الغافل عن أعمالهم، أي تحقق أن الله ليس بغافل، وهوكناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة، فهو كناية بمرتبتين، ذلك لأن النهي عن الشيء يأذن بأن المنهي عنه بحيث يتلبس به المخاطب، فنهيه عنه تحذيرمن التلبس به بقطع النظر عن تقديرتلبس المخاطب بذلك الحسبان. وعلى هذا الاستعمال جاءت الآية سواء جعلنا الخطاب لكل من يصح أن يخاطب فيدخل فيه النبي عليه الصلاة والسلام أم جعلناه للنبي ابتداء ويدخل فيه أمته.

ونفي الغفلة عن الله ليس جاريًا على صريح معناه؛ لأن ذلك لايظنه مؤمن؛ بل هوكناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين. ومنه جاء معنى التسلية للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٥٦).

الثاني: أن المقصود منه بيان أنه لولم ينتقم لكان عدم الانتقام لأجل غفلته عن ذلك الظلم، ولما كان امتناع هذه الغفلة معلومًا لكل أحد لا جرم كان عدم الانتقام محالًا(٥٧).

الثالث: أنّ المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير(٥٨).

الرابع: أن يكون هذا الكلام وإن كان خطابًا مع النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الظاهر إلا أنه يكون في الحقيقة خطابًا مع الأمّة(٥٩).

الخامس: أنّ المراد بالنهي عن حسبانه غافلًا، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: ﴿والله بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٣] يريد الوعيد(٦٠).

السادس: أن الخطاب لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلًا، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه(٦١).

واختاره أبوحيان، وقال الآلوسي: والأسلم من القيل والقال ما ذكرناه أولًا من كون الخطاب لكل من توهم غفلته سبحانه وتعالى لغير معين(٦٢).

وعلل ترجيحه في «الكشف» بأن في إطلاق الغافل عليه سبحانه وإن كان على المجاز ركَّة يصان كلام الله تعالى عنها(٦٣).

قال الله تعالى: سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ (إبراهيم:٥٠).

فإن قيل: النار تغشى جميع جسدهم فما فائدة التخصيص بالوجه؟

فالجواب ما قال الرازي: قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٢٤] وقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨].

واعلم أن موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب، وموضع الفكر والوهم والخيال هو الرأس. وأثر هذه الأحوال إنما يظهر في الوجه، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٦-٧] وقال في الوجه: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾(٦٤).

وقال الآلوسي: وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٢٤] ولكونها مجمع الحواس والمشاعر التي لم يستعملوها فيما خلقت له من إدراك الحق و تدبره، وهذا كما تطلع على أفئدتهم؛ لأنها أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤوها بالجهالات أولخلوها كما قيل: عن القطران المغني عن ذكر غشيان النار، ووجه تخليتها عنه بأن ذلك لعله ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانًا ويتضاعف عذابهم بالخزي على رؤوس الأشهاد(٦٥).

* * *

الهوامش:

(١) ابن الجوزي ١٧/٤
(٢) الرازي ٢٠١/٩؛ وابن عاشور٣٩٩/٧؛ والآلوسي٣٠٩/٩
(٣) الآلوسي٣٠٩/٩
(٤) الرازي ٢٠١/٩
(٥) الرازي ٢١١/٩
(٦) الرازي ٢١١/٩
(٧) الطبري٥٢٤/١٦؛ والسراج المنير١٨٠٠/١
(٨) الزمخشري ٢٦٦/٣
(٩) ابن عطية ٩٢/٤
(١٠) الرازي ٢١١/٩
(١١) ابن عاشور٤٠٦/٧
(١٢) أبوالسعود١٩/٤
(١٣) الرازي ٢١٧/٩؛والسراج المنير١٨٠٣/١
(١٤) أبوحيان ١٣٩/٧
(١٥) أبوحيان ١٣٩/٧
(١٦) الآلوسي٣٢٩/٩
(١٧) ابن عاشور٤١٠/٧؛و الآلوسي٣٢٩/٩
(١٨) ابن عاشور ٩٥/٤
(١٩) ابن عاشور ٩٥/٤
(٢٠) ابن عاشور ٤١٣/٧
(٢١) الزمخشري٢٧١/٣
(٢٢) الرازي ٢٢٥/٩
(٢٣) ابن عاشور ٤١٥/٧
(٢٤) ابن عجيبة١٩٠/٣
(٢٥) الرازي ٢٢٦/٩
(٢٦) الرازي ٢٢٦/٩
(٢٧) الرازي ٢٢٦/٩
(٢٨) الزمخشري ٢٧٢/٣؛والرازي ٢٢٦/٩
(٢٩) الآلوسي٣٣٦/٩
(٣٠) الرازي ٢٢٦/٩
(٣١) الرازي ٢٢٦/٩؛وابن عطية ٩٦/٤
(٣٢) ابن عاشور ٤١٧/٧
(٣٣) الرازي ٢٢٧/٩
(٣٤) الرازي ٢٣٠/٩؛و السراج المنير١٨١٠/١
(٣٥) الرازي ٢٣٠/٩؛و السراج المنير١٨١٠/١
(٣٦) الرازي ٢٢٩/٩
(٣٧) الرازي ٢٤٦/٩
(٣٨) ابن عاشور٤٣٠/٧
(٣٩) ابن عاشور ٤٣١/٧
(٤٠) أبوالسعود٣٧/٤؛والآلوسي٣٧٤/٩
(٤١) الزمخشري ٢٨٧/٣؛ والبيضاوي ٢٦٧/٣؛ والسراج المنير ١٨٢٧/١
(٤٢) الآلوسي٣٨٦/٩
(٤٣) الزمخشري ٢٨٧/٣؛والسراج المنير١٨٢٧/١
(٤٤) ابن عجيبة ٢٠٥/٣
(٤٥) البقاعي ٣٨٦/٤
(٤٦) أبوالسعود٩٣/٤
(٤٧) الرازي٢٥٧/٩؛و السراج المنير١٨٢٧/١
(٤٨) الرازي٢٥٧/٩
(٤٩) الآلوسي٣٨٧/٩
(٥٠) ابن عطية ١٠٨/٤
(٥١) الآلوسي٣٨٨/٩
(٥٢) الرازي٢٦٤/٩
(٥٣) الآلوسي٤٠٢/٩
(٥٤) الرازي ٢٦٥/٩؛والزمخشري٢٩١/٣؛السراج المنير١٨٣٧/١
(٥٥) الآلوسي٤٠٣/٩
(٥٦) ابن عاشور٤٤٦/٧
(٥٧) الرازي٢٦٥/٩؛ والسراج المنير١٨٣٧/١
(٥٨) الزمخشري ٢٩١/٣؛ والرازي ٢٦٥/٩؛ والسراج المنير ١٨٣٧/١
(٥٩) الرازي ٢٦٥/٩؛ والسراج المنير١٨٣٧/١
(٦٠) الزمخشري٢٩١/٣
(٦١) الزمخشري٢٩١/٣؛ وابن عطية ١١١/٤
(٦٢) أبوحيان في تفسير الآية ؛ والآلوسي٤٠٣/٩
(٦٣) أبوحيان في تفسير الآية ؛ والآلوسي٤٠٣/٩
(٦٤) الزمخشري ٢٩٤/٣؛ والرازي٢٧٣/٩
(٦٥) الآلوسي ٤٢١/٩، ٤٢٢

* * *

نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون

بقلم: الدكتور/ مازن المبارك

بين المادة والروح

لقد أتى على الإنسان حين من الدهر، ظن فيه أن بلـوغ الكـمال في الحيـاة لا يكـون إلا عـن طريـق الرقي المـادي، فـانطلق في ميـدان المـادة، كـما ينطلـق وحش الغابة، حتى وصل إلى القمر أو كاد، وحقق في ذلك نصرا لا ينكر، ولكنه نسي في غمرة انطلاقته الماديـة جانـب الحيـاة الآخـر، إنـه أهمـل الجانـب الروحي، فإذا هـو قـوي في جسمه، منتصر بمادتـه، متخلف في روحه، ضعيف في خلقه.

وقـد أدرك عقـلاء العـالم اليـوم، أن الطريـق المـادي لـيس كافيـا وحـده لبلـوغ الإنـسانية درجـة الكـمال، وإن رقـي الإنسان المـادي لم ينقـذ العـالم من الـويلات التـي تـزداد يومـا بعـد يـوم، فالاسـتعمار والحـروب، والثـورات وسـحق القـوي للـضعيف، والتعـصب العنـصري.. كـل ذلـك أخـذ يـزداد مـع الأيـام، ومـع ازديـاد الرقـي المـادي!! بـل إن الرقـي المـادي لم يكـن في هـذه المعـارك الظالمـة عـلى الحيـاد، وإنـما كـان عـلى العكـس سـلاحا للفتـك والـدمار في أيدي الظالمين.

إن العـالم اليـوم أشـبه بمـدرب عُنـي بتـدريب إنسان «أحمق» حتى أصبح عملاقا قوي العضلات، ثم سلحه بالحديد والنار، وأطلقه ليعيث في الأرض فسادا، ولـيس في قلبـه رادع مـن ضـمير، ولـيس في عقله غاية غير منفعته الخاصة.

والإنسان مخلوق من طين وروح، ولا بد لرقيه مـن العنايـة بعنـصريه جميعًـا، ولـذلك كـان للإسـلام وكشفه عن حقيقة خلق الإنسان فضل في تغيير نظرة العالم إلى علاقة الجسد بالروح، فلم يعد هناك جسد ينطلق بائسا من وجود حياة روحية فإذا هو آلة مادية، ولم تعد هنالك روح تتنكر للجسد، وتزعم أن رقيها لا يكون إلا بإهماله، وطهارتها لا تتحقق إلا بتعذيبه.

لقـد أصبح واضـحًا أن الجسم مـستقر موقـت للروح، وزالـت تلك الأوهـام القائمـة عـلى افتراض العـداء بيـنهما، فالجسم مخلـوق في أحـسن تقـويم لا ليهـان ويحتقر ويعذب، ولكـن ليقـوى ويحقق وجوه نشاطاته بما فيها اللذة الحلال. وبذلك يكون الجسم أقـوى عـلى مسايرة الـروح في انطلاقتهـا، لأنهـا إنـما تحقق نشاطها أولا في إطاره.

وليست الدنيا في نظر الإسلام مباءة، على المرء أن يفر منها، وليست طيباتها مكروهة، وإنما الدنيا دار امتحان، وعلى المرء أن يجد فيها ويكدح، وأن يتعاون فيها مع بني جنسه في كل ميدان، ليحقق في الحياة الدنيا عمارا ورقيا وازدهارا، وليقرب هذه الحياة من المثل الأعلى في الحق والخير والجمال.

إن الجانب الروحي والخلقي في حياة الإنسان ذو أثر بعيد وهام في أمن الإنسان ورفاهه؛ بل إن بعض العلماء ليرى أن أهمية هذا الجانب تفوق أهمية المعرفة العلمية التي تتوخى سيطرة الإنسان على الطبيعة؛ لأن العالم اليوم يعاني أزمة خلقية ودينية، أكثر مما يعاني من التخلف العلمي! إنه ليعاني من كيفية استثمار نتائج العلم أكثر مما يعاني في الوصول إلى تلك النتائج[1].

الإسلام دين واقعي

ولقد كان الإسلام هو المذهب الوحيد الذي أدرك حاجة الإنسان إلى الرقي الروحي والمادي في وقت واحد، فجمع بين الأمرين وقرن بينهما من غير إفراط ولا تفريط، إنه لم يجعل الكون المادي غاية، كما هو الأمر عند الماديين، ولم يتناس الطبيعة، أو يتنكر للجسد، كما هو شأن الروحيين، وإنما كان واقعيًا معتدلا يعترف بالمادة، فلا يغلو إلى درجة جعلها غاية، ويعترف بالروح اعترافا لا يعني أنها إهلاك للجسد.

إن الإسلام الذي كشف القناع عن خلق الإنسان من طين ليعترف للإنسان بغرائزه، في الوقت الذي يحتم فيه اتباع الطريق الذي رسمه للتنفيس عنها، ثم هو بعد ذلك – تمشيًا مع عنصر الروح في خلق الإنسان – ينظر إلى أبعد من الكون المادي، ويجعل الغاية أسمى من أن تقف عنده. إن الكون المادي مسخر للإنسان، ولكن غاية الإنسان تتعدى هذا الكون.

نعم، إن الدنيا لك أيها الإنسان، ولكنك أنت للآخرة، فتمتع من الأولى وهيئ نفسك للثانية ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[2].

بل لقد جمع القرآن ما في الأكل والشرب وطيبات الرزق والزينة من مادة إلى ما في العبادة من جانب روحي فقال ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾[3] وأمرنا أن يكون دعاؤنا شاملا لحسنتي الدنيا والآخرة فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾[4] ومنهم من يقول ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا

كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٥).

فالإسلام – إذن – لم يتنكر للدنيا، ولم يحرم التمتع بالرزق الطيب. والزينة التي أخرج الله لعباده، ولكنه من ناحية ثانية حذر من أن يركن الإنسان إلى الدنيا، ويغرق في لذاذاتها، ويغتر بها، وينسى أنها فانية.. إنه حذر الإنسان من أن تكون دنياه حجابا دون الآخرة، وكثيرا ما لفت نظره إلى سرعة زوال الدنيا ونعيمها ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾(٦). ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ...﴾(٧) وذلك لأنكم ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ﴾(٨) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(٩).

وعلى هذه الصورة جمع الإسلام بين الروح والمادة، وقرن بين الدنيا والآخرة، فكانت صورة رائعة لا نظير لها في أي دين أو مذهب آخر. إن عمار الدنيا وإتقان الصناعة والتوسع في العلوم أمور حض الإسلام عليها، ولكنه في الوقت نفسه لم يجعلها غاية نهائية، يقف الإنسان عندها، وينتهي طموحه لديها، وإنما جعل الغاية وراء ذلك سموًّا وعلوا، ودعا الإنسان إلى الرقي، ليصل إلى ما يستطيع من مشارف تلك الحياة السامية الخالدة.

الأسس والآثار الحضارية في الإسلام

ولنقف الآن عند نظرة الإسلام العامة إلى الكون وإلى الإنسان لنرى ما فيها من أسس صالحة لبناء الحضارة ولنرى بعد ذلك ما يفتح عنها من آثار حضارية.

لقد كان للنظرة الإسلامية إلى الكون وإلى الإنسان أثرها البعيد في تاريخ الحضارة وفي اتجاه تلك الحضارة، كما كان لها أثرها في تطور حياة الإنسان وجعلها حياة مزدهرة مثمرة. ولقد كان من أبرز خصائص هذه النظرة الإسلامية أنها أرست للحضارة أسسا ثابتة تنطلق الحضارة عنها في كل مجال، وأنها نظرة واقعية تحققت في عالم الواقع لا في أوهام الفلاسفة وخيالات المشرعين، فكانت مثلا رائعا للحضارات على مدى التاريخ.

في الحياة الفردية

١ – ففي مجال الحياة الفردية كانت لنا ثلاثة أسس:

أولاً: أن للفرد حرية تكفل له نشاطه، ولا تصل إلى حد الإضرار بمصلحة غيره.

وثانيها: أنها أيقظت في نفس الإنسان ضميره.

فأصبح له من نفسه حارس عليه.

وثالثها: أنها حررته من كل عبودية لغير الله تعالى.

أما الأساس الأول: وهو أن تترك للإنسان حرية لا تضيق حتى تشل حركته، وتقتل موهبته، ولا تتسع حتى تطغى على مصالح الآخرين، ففيه حل لمشكلة من أبرز مشاكل المجتمعات البشرية التي يدور فيها اليوم صراع شديد بين النظام الحر والنظام الموجه. ونحن نعتقد أنه إذا أردنا أن نحفظ على الإنسان إنسانيته، وعلى المرء مروءته، فلا بد أن نتركه حرًّا ينطلق في تحقيق مواهبه، واستثمار كفاءاته، ليتنافس الأفراد في تقديم الخير لأنفسهم ولمجتمعاتهم، ولن يكون هذا التنافس في ظل الإسلام وتحت إشرافه، إلا تنافسا خيرا، يرعى حقوق الفرد، وحقوق الجماعة.

ونحن نستطيع أن نطبق هذا المبدأ القائم على الحرية المعتدلة في كل ميدان من ميادين الحياة، فنطبقه في ميدان الفكر، كما نطبقه في ميدان الاقتصاد، وذلك بأن نترك للأفراد أن يفكروا كيف يشاؤون، وأن يكتبوا ما يشاؤون، على ألا يكون في شيء من ذلك مساس بمصلحة جماعتهم وعقيدتها. ولقد كانت لهذا المنهج الحكيم ثمراته الخيرة في تاريخ حضارتنا، يوم طبق فلم يشل حركة الفكر؛ بل هيأ للعالم علماء أفذاذا، كابن سينا، والغزالي، وابن رشد، وغيرهم، ممن قال عنهم علماء الغرب: إنهم ظلوا أساتذة للغرب حتى القرن التاسع عشر. قال غرونباوم «ليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب الإسلام فيه بسهم، ولم يزد ثروة الثقافة الغربية فيه غنى».

وأما الأساس الثاني: وهو إيقاظ الضمير، فمتصل بالأساس الأول، إذ قد يجنح بعض الأفراد أو ينحرفون، نستعبدهم شهوة الكسب أو شهوة الشهرة، فيظلمون المجتمع بوسائل كسبهم الجشعة، كاحتكار القوت، أو يسيئون إليه باتخاذ مخالفة العقيدة طريقا إلى الشهرة.. فكان لا بد لهؤلاء وأولئك من رادع ورقيب. فكان الأساس الثاني لذلك قائما على إيجاد ذلك الرادع وإيقاظه دائما ليكون حارسا أمينا، أو صمام أمان، يحرص المسلم على بقائه نقيًّا طاهرا يقظا، لأن الله سبحانه مطلع عليه، وهو الذي يعلم الجهر وما يخفى.

وأما إذا صدئ هذا الضمير، أو قصر في واجبه، فإن الحاكم يقوم بوظيفة الرقيب والرادع، ليحفظ حقوق الجماعة من المنحرفين، ويعيد إلى المجتمع توازنه المطلوب.

وأما الأساس الثالث، وهو تحرير الإنسان من عبودية الإنسان، أيا كان، وربطه مباشرة بالله الخالق

القوي، فقد كان ذا آثار بعيدة في الحياة الإنسانية من أقربها أنه أنقذها من حياة الفوضي والقلق، تلك التي كانت تعيشها، وأوجد فيها سكينة وطمأنينة أتاحت لها فرصة العمل المثمر، والإنتاج النافع. إن الإسلام حين ربط نفس الإنسان بالله فقد ربطها بمصدر قوة كبرى تفزع إليه عند الملمات ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولقد قرر العلماء أن الإيمان بالله هو الدواء الناجع الوحيد للتخلص من القلق والاضطراب النفسي، وراحوا يعملون اليوم على إبراز هذا الجانب الروحي، وبيان قيمته في العلاج النفسي، وحسبك أن تقرأ كتاب (دع القلق وابدإ الحياة) «لديل كارلنجي» (وكتاب العودة إلى الإيمان) «لموريس كريسون».. فكارلنجي يقول «إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والاستمساك بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبي». ويقول الدكتور بريل: «إن المرء المتدين حقا لا يعاني قط مرضا نفسيًّا».

والحقيقة أنه متى انتصرت النفس الإنسانية على شهواتها، وأصغت إلى ضميرها، وراقبت ربها، وتحررت من كل عبودية لغيره، اندفعت بناءة في ميدان الخير، تعمل لنفسها ولمجتمعها وللإنسانية جميعا. هذا إلى جانب ما لصلة الإنسان بربه من أثر في رفعة الخلق وسمو الغاية.

في الحياة الاجتماعية

٢- وفي مجال الحياة الاجتماعية، وضع الإسلام التكافل الاجتماعي أساسا يقوم عليه المجتمع، وهو تكافل عام شامل لكل ميدان، لا يقتصر على توزيع الثروات، أو إعانة الفقراء، وإنما يمتد ويعم حتى يشمل ميدان الصناعات، وذلك أن الإسلام أوجب على المجتمع الإسلامي أن يكفي نفسه، فإن خلا مجتمع أو بلد من صناعة يحتاج إليها المسلمون، فكل أهل البلد آثمون، ومعنى ذلك أن على المسلمين اليوم أن يسهموا في كل ميادين الصناعة مثلا – من صناعة النعال إلى إنتاج الذرة.

ولم يكتف الإسلام بجعل المجتمع شركة يتقاسم أبناؤه الأعباء والمغانم، وإنما جعله أسرة واحدة قائمة على المحبة والتعاون والتراحم، تلك المثل التي يفتقدها عالم اليوم، وواضح أن هذا الشعور العاطفي لم يكن ليفسد النظرة الموضوعية إلى المجتمع وواقعه، وحسبك بنظرة ابن خلدون مثالا للنظرة الموضوعية الإسلامية في دراسة المجتمعات البشرية.

في ميدان الإنسانية

٣- وأما في ميدان الإنسانية عامة، فكان

الأساس الذي أرساه الإسلام أن البشر جميعا من أصل واحد وإلى مصير واحد، وأنهم متساوون، لا يفرق بينهم نسب، ولا لغة، ولا لون، ولا جنس، فالناس جميعا بشعوبهم وأممهم ونسائهم.. مخلوقون للتعارف والتعاون على بناء العالم وازدهار الحياة. وكان من آثار هذه النظرة الإسلامية أن التقت لأول مرة في تاريخ الإنسانية أمم وشعوب، تعاونت على بناء العالم، ورقي حضارته، رغم ما بينها من فروق الجنس واللون واللغة. وكان من أثر هذه النظرة أيضا أن فاضت الحضارة الإسلامية بخيرها على العالم أجمع، فتمتعت بها أقوام وأمم، سواء منها من خضع لحكم المسلمين ومن لم يخضع.

في ميدان العلم

٤- وفي ميدان العلم قامت نظرة الإسلام على أساسين: إيماني وتجريبي.

أما الإيماني فخاص بما أخبر به الله تعالى، وما تنزل به الوحي، وليس للمسلم إلا أن يقبل ويسلم، وقد أخبر الله تعالى أنه قد تمت الرسالة وانتهى الوحي، وختمت النبوات.

وأما العلم التجريبي فهو الذي لفت القرآن إليه أذهان الناس، وحثهم على البحث فيه، وإخضاعه للتجربة العلمية الموضوعية لمنافعهم، وقد رأينا كيف كان القرآن يحض على استخدام العقل والفكر في الآيات الكونية، فكان صوته أول نداء مزق في العالم حجب الوهم والخرافة، ودعا الإنسان إلى اكتشاف قوانين الكون ومعرفة أسراره.

وكان من أثر هذه النظرة أن نقل الإسلام العلم من مرحلة النظر، إلى مرحلة العلم والتجربة، فعرف العالم المناهج التجريبية، وعرف النابغين من العلماء، كالبيروني، وابن الهيثم، والجاحظ، والرازي.. وغيرهم ممن كانوا أساتذة العالم في الطب والفلك والكيمياء. وكان العصر الزاهر للحضارة الإسلامية عصر العلم والعلماء(١٠).

ولقد أثبت الإسلام – كما يقول غوستاف لوبون – أنه من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم؛ بل إن لوبون يصرح: بأن المناهج العلمية الحديثة مدينة للمسلمين وحدهم بالفضل الأول فيقول: (يعزى إلى بيكون على العموم أنه أول من أقام التجربة والترصد اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الأستاذ، ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم..) وهو يعني المسلمين.

ويورد لوبون آراء عدد من العلماء الذين يؤيدون رأيه هذا، ثم يقول: (قام منهاج العرب على التجربة والترصد، واختبروا الأمور وجربوها، وكانوا أول من أدرك هذا المنهاج في العالم، وظلوا

عاملين به وحدهم زمنا طويلا)[11].

في ميدان السلام

٥- واخيرا أرسى الإسلام أساسا لا بد منه لازدهار الحضارة الإنسانية وسعادة البشرية وهو السلام، فالإسلام والسلم والسلام من أصل لغوي واحد، والله تبارك وتعالى هو السلام، ولقد بلغ من حرص الإسلام على السلام أن اتخذه شعارا له، فكان أول ما يذكر في اللقاء بين مسلمين، بل كان هو شعار المسلمين يوم يقدمون على ربهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾.

والحق أن الإسلام منح السلام للعقل الإنساني الذي كان قلقا يبحث عن الخالق وأسرار الكون، فلا يهتدي، ومنح السلام للنفس الإنسانية التي كانت مضطربة تعتقد أنها في حرب دائمة مع الآلهة والأرواح الشريرة، فهي دائمة اللهفة لاسترضائها ودفع سخطها، فجعلها الإسلام مطمئنة راضية تؤمن بإله واحد، وهو إله يحبها ويفرح باهتدائها، ويدعوها لإنهاء الخصومة، والاستسلام له أو الإسلام له ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ (سورة الزمر). ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (سورة النساء). ومتى وجد السلام في النفس والعقل، ومتى وجد في الأرض بين بني البشر، فقد وجد الاستقرار، ومتى وجد الاستقرار فقد وجدت الحضارة.

قوة تحرس السلام

٦- على أن الإسلام لم يترك فكرة السلام مجرد دعوة أو مجرد فكرة قد تضعف أو تعصف بها شهوات النفوس الجانحة، وإنما دعمها بالقوة تحرسها، وتسهر على تحقيقها. إنه يؤثر السلام ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولكنه يدعو إلى أن تكون بجانب السلام قوة تدعم الحق، وتنتصر له، فأمر بإعداد القوة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وأمر بقتال الفئة الباغية ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾.

وهكذا هيأ الإسلام العالم للحضارة إذ أوجد لها ظروفها الملائمة، وأية ظروف أجدى على الإنسانية وحضارتها من دفع العقل البشري إلى التفكير والعمل والتجربة، وتهذيب النفس وحراستها بالضمير، وربطها بالله ووضعها موضع الرغبة فيه والرهبة منه، ثم كفالة الاستقرار بتأمين السلام؟؟

وأي دليل أصدق على ملاءمة هذه الظروف من دليل الواقع الحي الذي يشهد له التاريخ؟ لقد شهد التاريخ لهذه المبادئ الإسلامية بالنجاح الواقعي، وشهد أنه بفضلها أخصبت الحياة وازدهرت في ميادين التجارة والصناعة والزراعة

والعمران، ويكفي أن نتذكر ما كانت عليه عواصم العالم الإسلامي – يوم سادت تلك المبادئ – من تقدم، وما بلغت الحياة فيها من رقي، وما شاد الفن فيها من آثار ما زالت قرطبة وغرناطة والقاهرة ودمشق وبغداد شاهدة عليه حتى اليوم.

إن التاريخ ليشهد أن تلك الأسس وهذه الآثار الحضارية ليست شيئا يزينه الوهم أو يبدعه الخيال، كما هو الأمر في أكثر الدعوات، وما تزخرفه للناس أو تغري به السذج، وإنما هي أسس عرفها واقع الحياة الإسلامية، وعرف العالم حضارتها؛ بل لقد شهد لتلك الحضارة علماء ومؤرخون من غير المسلمين، فكان منهم من قال: (لم يفتح الإسلام العالم ولكنه غزاه بحضارته)[١٢] وكان منهم من قال: (الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد مَن عرفته أوروبا من الأعداء إرهابا عدة قرون، وأنهم كانوا عندما لا يرهبوننا بأسلحتهم – كما في زمن الحروب الصليبية – كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة)[١٣] وقال: (إن للحضارة الإسلامية تأثيرا عظيما في العالم. وإن أوروبا مدينة بحضارتها للعرب)[١٤].

ونختتم بحثنا هذا بالتأكيد على أن هذه الأسس التي وضعها الإسلام للحضارة تمتاز بخصائص تجعلها أسسا صالحة لبناء حضارة إنسانية عالمية. فهي تمتاز:

أولا: بالنزعة الإنسانية التي لا تعرف حدود الأرض أو القوم أو اللغة، ولا تقبل تفرقة للجنس أو اللون أو غيرهما من العصبيات.

ثانيا: بالبساطة وعدم التعقيد مما يجعلها ملائمة لشتى الظروف ومختلف المتطلبات.

ثالثا: بالشمول لجميع جوانب الحياة التي تحتاج إليها الحضارة من خلق وعقل وعمل.

رابعا: يمتاز الجانب الأخلاقي فيها بشمول رائع للفرد والجماعة والدولة، فكما لا يقبل الإسلام من الفرد مثلا أن يكذب أو يخدع أو يخون أو يعتدي من أجل مصلحته الخاصة، فكذلك لا يقبل هذه المفاسد من الجماعة أو الدولة من أجل القوم أو الوطن أو سياسة الدولة..

وبعد..

فإن الحضارة الإسلامية ذات أساس إيماني؛ لأن الإيمان بالله هو الأساس الأول الذي ترتكز إليه وهو إيمان يحرسها، ويجنبها الكثير من العثرات، ويجعل عطاءها عاما لجميع عباد الله. وهي حضارة تنبعث كما رأينا من نظرة الإسلام إلى الكون وإلى الإنسان، تلك النظرة التي تعطي كل شيء في الحياة نصيبه، وتضع كل شيء موضعه، فللإيمان فيها موضع وعمل، وللعقل فيها موضع وعمل، وللروح فيها نصيب كبير، ثم إن الروح والجسم فيها

أليفان يساعد أحدهما الآخر، ولا يطغى جانب فيها على جانب، فلا ينسى الإنسان فيها ربه، ولا تطغى فيها العبادة حتى تشل العمل أو تعيق الإنتاج.

نظام شامل

على أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن الإسلام نظام شامل، وأنه إذا أردنا له أن يقيم نظاما حضاريًّا، وأن يؤتي ثماره الطيبة فلا بد من رعاية الأسس التي نادى بها جميعا، وأنه لا جدوى من الإيمان ببعض الإسلام دون بعضه الآخر. ولا بد لنا بعد ذلك أن ندرك أنه ما من مذهب من مذاهب الأرض، ولا دين من أديان السماء جاء كالإسلام، بانيا للحضارة في كل ميدان من ميادين الحياة، فإذا هو في حياة الفرد حرية لا تعرف العبودية لغير الله، ولا تحدها في الأرض غير مصلحة الجماعة، وهو في نفس الإنسان إيمان يدفعه إلى العمل، ويحضه على الإتقان فيه، وهو ضمير يقظ يحول بين المرء والآثام، وهو بعد ذلك أمر للإنسان بالعمل الدائم، وبكل طاقاته لتسخير الكون لمنفعته، وإعداد القوة لإقامة الحق والعدالة والمساواة في الأرض.

هذا هو الإسلام وتلك هي نظرته، فما أحوج عالمنا اليوم إليه وإلى نظرته، لينظر من خلالها إلى الكون وإلى الإنسان، وليبني على أساسها حضارته الجديدة.

ما أحوج عالمنا اليوم إلى الإسلام ليعود إلى الارتباط بالله خالقه العلي العظيم. وما أحوجه إلى النظرة الإسلامية، التي تتفرد بأنها وحدها من بين أديان السماء ومذاهب الأرض تجمع ما في الدين من سمو روحي، إلى ما في العقل من طموح علمي، إلى ما في العمل من فعالية دائبة، مستثمرة ذلك كله في سبيل المثل الأعلى والكمال المطلق.

ولا يسألني سائل بعد الذي ذكرت: أين هي اليوم أسس الإسلام في حياة المسلمين؟ ولا أين هي حضارة الإسلام في واقع المسلمين؟ فما أصدق من قال: إن الإسلام اليوم محجوب بالمسلمين.

* * *

الهوامش:

(١) انظر كتاب «الله يتجلى في عصر العلم».
(٢) سورة القصص.
(٣) سورة الأعراف.
(٤) أي نصيب.
(٥) سورة البقرة.
(٦) سورة الكهف.
(٧) سورة هود.
(٨) سورة الأنفال.
(٩) سورة الأعلى.
(١٠) انظر الحضارة الإسلامية لفرونباوم ص (٣٠٩).
(١١) انظر كتاب حضارة العرب لفوستاف لوبون ص (١٢٦) و (٤٣٥-٤٣٧).
(١٢) الحضارة الإسلامية لفرونباوم.
(١٣) حضارة العرب لفوستاف لوبون (٥٧٧).
(١٤) انظر حضارة العرب ص (١٧٦) وما بعدها.

الصوم وأثره في حياة المسلم

بقلم: **الأستاذ/ عاذب أشرف الأعظمي**(*)

الصوم مدرسة تربوية إسلامية تربّي الإنسان بكل ما فيها من مكونات ومقومات نفسية وجسمية وروحيــة وخلقيــة واجتماعيــة، وتــؤثر في حياتــه وأعماله الراتبة أثرا بعيد المدى، وذلك لأن الصوم شُرِعَ خيرَ معوان على محاربة الهوى وقمع الشهوات وتزكيــة الــنفس وإيقافهــا عنــد حــدود الله تعــالىٰ، فيحبس لسانه عن اللغو والسباب والانطلاق في أعراض الناس، وعن السعي بينهم بالغيبة والنميمة المفسدة، كما يردعه عن الغش والخداع والتطفيف والمكر وارتكاب الفواحش، وأخذ الربا أو الرشا وأكل أموال الناس بالباطل، ويجعل المسلم يسارع في فعل الخيرات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإعطاء كل ذي حق حقه، والإحسان إلى القربى واليتامى والجيران والمساكين - كما يحفّز الصوم صاحبه للإقدام في إكثار النوافل وتلاوة القرآن وبذل الصدقات وفعل المشاريع النافعة، وللحرص على كسب لقمة العيش على الوجه الحلال، وللتفادي من جميع المساوئ والسلوكيات غير اللائقة التي يأباها الشرع الإسلامي والأخلاق الإنسانية.

ولكن هذه الثمرات والبركات مشروطة بأن يكون الصائم بمعنى الكلمة، فلا بد أن يكون صومه عن إيمان واحتساب وخشية ومراقبة وتعظيم ومحبة لله، ويستقبل رمضان راضيا مرضيًّا مطمئنَّ النفس، منشرح الصدر، مسرورا ، ملتذًّا، شاكرا لله تعالىٰ، ولا يكون في نفسه اضطراب ولا انزعاج ولا ضيق ولا حرج أبدا، بل يكون أوسع أفقًا، وأشرح صدرا، وأطيب نفسا، وأقوى روحا، فهذا هو الذي يكون الصوم تهذيبا لنفسه، وجلاءً لروحه، وزيادةً لإيمانه وحضًّا على عباداته وطاعاته، وتحفيزا لهمته لأداء دور مهم في شهر رمضان المبارك.

وأما الصائم الذي يصوم رمضان عن توجع وتحسر وسوء استقبال، ويتمنى سرعة انقضائه، ويظن الصوم جوعا وعطشا محضا وعبئا عظيما يستثقله، ويجد في نفسه حرجا، وفي صدره ضيقا،

(*) المدرس المساعد بالجامعة.

ولا يترك ما نهى الله عنه حال الصيام من الكذب والغيبة والنميمة والسعي بين الناس بالحقد والجدال، فهيهات أن تُؤتي هذه المجاهدة المتمثلة في كف النفس عن الأكل والشرب والوقاع أُكُلها، ولا يكون له حظٌّ من صومه إلا الجوع والعطش، ولا يظفر هو ببركات الصوم وثمراته التي نص عليها أو أشار إليها الشرع الإسلامي المحترم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش[1]، وعنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِيْ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»[2].

والمتأمل في حكمة تشريع الصوم ومقاصده السامية وكيفية أدائه ومبتدئه ومنتهاه والناظر في حال الصائم وقت الصيام، يستخلص من ذلك كله دروسا وتوجيهات كثيرة لايمكن حصرها في هذه العجالة؛ إلا أننا نكتفي بسرد ما يتعلق بدور الصيام في تهذيب النفس وتقويم العادات وتأثيره في السلوك والتعامل، وفي تغيير مسار الحياة إلى صلاح وتقى وهدى وروحانية ومحبة وإخاء.

التقوى هي المقصد الأول من تشريع الصوم:

التقوى هي أول القيم التربوية للصائم ولصيانته من أن ينغمس في الشهوات والملذات ويتمادى في المعاصي والمنكرات، أو يتجاوز حدودها، وإنما يغرس التقوى في نفس الصائم حاجزا يردعه عن المحرمات ويحول بينه وبين معصية الله تعالىٰ، فالصوم هو ميدان التسابق إلى مراتب التقوى، قال الله سبحانه وتعالىٰ مصرحا بأهم مقاصد الصوم: لَعَلكم تَتَّقون[3].

يقول الرازي في تفسيره: إِنَّ الصَّوْمَ يُورِثُ التَّقْوَى لِمَا فِيهِ مِنَ انْكِسَارِ الشَّهْوَةِ وَانْقِمَاعِ الْهَوَى فَإِنَّهُ يَرْدَعُ عَنِ الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالْفَوَاحِشِ ويهون لذّات الدنيا ورئاستها، وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّوْمَ يَكْسِرُ شَهْوَةَ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ، وَإِنَّمَا يَسْعَى النَّاسُ لِهَذَيْنِ، كَمَا قِيلَ فِي المثل السائر: المرء يسعى لعارية بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ، فَمَنْ أَكْثَرَ الصَّوْمَ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ هَذَيْنِ وَخَفَّتْ عَلَيْهِ مُؤْنَتُهُمَا، فَكَانَ ذَلِكَ رَادِعًا لَهُ عَنِ ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ، وَمُهَوِّنًا عَلَيْهِ أَمْرَ الرِّيَاسَةِ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ جَامِعٌ لِأَسْبَابِ التَّقْوَى[5].

فالصائم الحقيقي بما يظفر به من حب وإيمان واحتساب واحترام كبير، يغتنم الأيام والليالي للاستزادة من قوة العلاقة بينه وبين الله تعالىٰ، ويستطيع أن يجتنب مسببات العقاب والعذاب، والتورط في آفات العجب والرياء التي تحيط بالإنسان، وقد تحبط عمله في رمضان وغير رمضان، وقد أكد على ذلك ما رواه مُعَاذ بْنُ جَبَلٍ، من

حديث طويل، وفيه: قَالَ: «أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ... الحديث(٥).

إن الصيام يجعل الصائم متمسكا بالتقوى ومراقبة النفس في كل وقت، وذلك لأن الصائم مادام صائما، يظل حذِرا متيقظا، خشية أن يقدم - غافلا ناسيا- على شيء لا يجوز له، مما اعتاده في حياته وسلوكه اليومي. فكم يُقْبل الصائم على شيء يريد فعله أو قوله، وقد تمتد يده أو لسانه إليه، ثم يتذكر أنه صائم فيتراجع ويمسك. وقد تُستثار حميته ويتحرك غضبه على أحد أو شيء لسبب من الأسباب، فيريد أن يقول أو يفعل ما تُثيره نفسه، فإذا هو يستحضر صيامه ومتطلبات صيامه، فيمسك نفسه ويَكظم غيظه؛ فهذا كله من التقوى، وكله ترويض على التقوى. فلتأصيل عادة التقوى والاستحضار الكامل في نفوس المسلمين شُرع صيام رمضان، فقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المقصد الجلل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٦).

من هنا يمكن أن ندرك حقيقة الصوم ومقاصده الروحية والمعنوية التي من أعظمها تقوى الله سبحانه وتعالىٰ وزيادة الخوف منه في السر والعلن، وأن يكون المسلم قريبا من الله تعالىٰ قوي الصلة به، دائم الحب معه، بعيدا عن طاعة هواه، وعصيان مولاه. فالتقوى هي العامل الأول الذي يترتب على حياة الصائم والذي يحجزه عن المخالفة والانحراف، ويؤصّل في نفسه خشية الرحمن ويُرويها بالعبادة والطاعة والإحسان.

أثر الصوم في تهذيب الأخلاق

للصوم آثار تربوية عظيمة على الجانب الخلقي لدى المسلم، لأنه مدرسة روحية متخصصة في مجال الإصلاح والتربية والتهذيب، ومن أهم آثار الصوم أنه يدفع الإنسان إلى الارتقاء الخلقي والسعي الحثيث إلى الاتصاف بمحاسن الأمور وأعاليها والبعد تماما عن سفاسفها التي تطمِّر مستقبله وتشوِّه سمعته، وتجعله في انحطاط أمام نفسه وأمام الآخرين، ومن ينظر في السنة النبوية المطهرة يجد أنها تفيض بنور الوحي السماوي في بيان هذا الجوهر الجوهري للصيام، وذلك في قول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ «الصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولايجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم»(٧).

هذا، وقد أدى الصوم دوره في تجنيب الصائم ما يؤدي إلى السباب والقتال والشجار بين المسلمين، من كذب وزور في الكلام، وذلك يتمثل في قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي

الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(٨). وفي قول النبي ﷺ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ»(٩).

فالمسلم يتعلم من صيامه كف اللسان عن الآثام، ويجتهد جهده في قول الصدق والتزامه وفي التمسك بالأخلاق الفاضلة ويتحرى اجتناب الأخلاق الفاسدة التي قد تحيط بالإنسان فتهبط أعماله، فإن للصوم تأثيرا فعَّالا قويًّا على أخلاق الصائم، فإنه يمنعه طوال شهر كامل من فعل الذنوب، ويبعده عن المحرمات؛ بل إنه يجعله في أسمى الطاعات وأعلى المراتب الأخلاقية، ويحميه من كل رذيلة ويحارب فيه كل نقيصة، فلا نميمة ولا كذب ولاغيبة ولا سعي في فساد ولا قول في مكروه، ولا معصية مهما كان قدرها.

أثر الصوم في فطام النفس عن الشهوات المحرمة

إن الصوم بما فيه من تزكية للنفوس وتهذيب للأخلاق وتطهير لأوضار المعاصي التي تصدأ بها القلوب، يؤدي دوره كذلك في حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات والملذات المحرمة، وتعديل قوتها الشّهوانية، ومما تقرر لدى العقل أن الجوع والظمأ يكسران من حدة القوة الجنسية، ويمنعان النفس عن استرسالها لهواها ومقتضياتها الشهوانية واتباع خطوات الشيطان، كما يساعدان النفس على غض البصر، وحفظ الفرج، واجتناب سوء النظر إلى غير المحارم.

يقول الإمام ابن القيم: «المقصود من الصِّيام حَبْسُ النَّفس عن الشَّهوات، وفِطامها عن المألوفات، وتعديل قوَّتها الشَّهوانيَّة، لتستعدَّ لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبولِ ما تزكو به ممَّا فيه حياتها الأبديَّة، ويكسر الجوع والظَّمأ من حدَّتها وسَوْرتها، ويذكِّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، ويُضيِّق مجاريَ الشَّيطان من العبد بتضييق مجاري الطَّعام والشَّراب، ويَحْبِس قوى الأعضاء عن استرسالها بحكم الطَّبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها، ويُسكِّن كلَّ عضوٍ منها وكلَّ قوَّةٍ عن جماحه ويلتجم بلجامه. فهو لِجام المتَّقين، وجُنَّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقرَّبين، وهو لربِّ العالمين من بين سائر الأعمال، فإنَّ الصَّائم لا يفعل شيئًا، وإنَّما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو تركُ محبوبات النَّفس وملذوذاتها إيثارًا لمحبَّة الله ومرضاته(١٠). وما قاله النبي ﷺ من أن الصوم جنة يوضح مقصودنا من هذا الكلام فإنه يعني أن الصوم يردع النفس عن التمادي في هوة

الشهوات والملذات[11].

يقول الطيبي رحمه الله في شرح هذا الحديث: قوله: (الصوم جنة) أي عن النار؛ وإنما جعل الصوم جنة عن النار؛ لأن في الجوع سد مجاري الشيطان، كما في الحديث: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ألا فضيقوا مجاريه بالجوع» أو كما قال، فإذا سد مجاريه لم يدخل فيه، فلم يكن مسببا للعصيان الذي هو سبب لدخول النار وإنما جعل الصوم جنة؛ لأنه يقمع الهوى والشهوة، مصداقه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الصوم له وجاء) فالشبع مجلبة للآثام، منقصة للإيمان، ولهذا قال ﷺ: (ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه؛ فإن الشبع يوقعه في مداحض، فيزيغ عن الحق، ويغلب عليه الكسل، فيمنعه من وظائف العبادات، ويكثر المواد الفضول فيه، فيكثر غضبه وشهوته، ويزيد حرصه، فيوقعه في طلب مازاد على حاجته، فيوقعه في المحارم»[12].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وَأما الصَّوْم فناهيك بِهِ من عبَادَة تكف النَّفس عَن شهواتها وتخرجها عَن شبه الْبَهَائِم إِلَى شبه الْمَلَائِكَة المقربين فَإِن النَّفس إِذا خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم الْبَهَائِم فَإِذا كفت شهواتها لله ضيقت مجاري الشَّيْطَان وَصَارَت قريبَة من الله بترك عَادَتهَا وشهواتها محبَّة لَهُ وإيثارا لمرضاته وتقربا إِلَيْهِ فيدع الصَّائِم أحب الْأَشْيَاء إِلَيْهِ وَأَعْظَمهَا لصوقا بِنَفسِهِ من الطَّعَام وَالشرَاب وَالْجِمَاع من أجل ربه فَهُوَ عبَادَة وَلَا تتَصَوَّر حَقِيقَتهَا إِلَّا بترك الشَّهْوَة لله فالصائم يدع طَعَامه وَشَرَابه وشهواته من أجل ربه»[13].

أثر الصوم في تربية النفس على الصبر

إن في الصوم تعويدا للنفس على الصبر وتحمل المكاره والمشقات، فالصائم – مع ما به من جوع وعطش شديد، خصوصا في الأيام الحارة الطويلة التي يرهقه الصوم فيها ويبلغ به الجهد كل مبلغ – يظل صابرا محتسبا يتحمل الجوع والعطش، ولاتساوره رغبة في الإفطار أبدا مهما تعِب ونال منه الجهد، وإنما يبقى متمسكا بذيل الصبر والامتناع عن كل شيء يُصنف مفطرا للصوم أو مكدرا له، ولأجل ذلك وصفه النبي ﷺ بشهر الصبر، فعَنِ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْرِ»(١٤)، وإذا ألف الإنسان الصبر وتعوّد التحمل على المكاره، ألفه في سائر الأعمال والعادات والأحوال الدنيوية والأخروية.

وحبس النفس عن شهواتها في أيام شهر كامل فيه تدريب لها على اكتساب فضيلة خلق الصبر، فحُق لهذا الشهر أن يوصف بأنه شهر الصبر، فمن استطاع بإرادته وتوفيق الله له أن يكف نفسه عن

شهوات بطنه وفرجه المباحة في غير الصوم، والتي يمارسها في العادة، ويصبر على كف نفسه عنها خلال أيام شهر كامل، من استطاع ذلك بفضل الله استطاع أن يكف نفسه بعد ذلك ويصبر عن الشهوات المحرمة، فإنه صبر عما أحل الله له، فمن باب أولى أن يصبر عما حرم الله تعالىٰ عليه، ويصبر على المصائب ويصبر على الطاعات التي فيها تكليف للنفس، لأنه قد تدرب بالصيام المشروع في رمضان على فضيلة خلق الصبر.

الصوم يحثّ على الجود والكرم:

شهر رمضان شهر الخيرات والبركات، وموسم المسارعة إلى الطاعات والقربات وشهر الجود والكرم والسماحة في البيع والشراء وفي جميع المعاملات الاجتماعية، ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وأخرج البخاري من رواية ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المرسلة»[١٥].

إذن، فشهر رمضان شهر الجود والمواساة والكرم والشعورِ بما يعيشه الفقراء والمحتاجون من فقر وعوز وبؤس وشقاء، وذلك لأن الصائم حين يصوم رمضان ويتحمل بدوره مرارة الجوع والعطش مع ما يحمل في قلبه من إيمان وإخلاص وصفاءِ نيةٍ ومحبة مع الله واستحضارٍ لهذا الشهر المبارك ، فسرعان ما تتفجر لديه ينابيع الرحمة بالبؤساء الجائعين العطشى، ويستشعر ما يلاقونه من لوعة الحرمان وحرقة الجوع التي يصطلون بها طوال السنة، فيسارع إلى الإنفاق والإحسان معهم، وتنبسط كفه بالصدقات والهدايا متأسيا برسول الله ﷺ الذي كان جوادا كالريح المرسلة في الصدقة وبذل المعروف.

أثر الصوم في تعويد النفس لتلاوة القرآن

علاقة القرآن بشهر رمضان علاقة وطيدة معروفة يؤكدها النصوص، وعادات السلف الرمضانية فقد أنزل الله تعالىٰ كتابه في ليالي هذا الشهر المبارك، فشهر رمضان شهر تلاوة القرآن، فكان الزهري إذا دخل رمضان يقول: إنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام»[١٦]، وكان مالك رحمه الله إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على تلاوة القرآن من المصحف[١٧]، وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادات وأقبل على قراءة القرآن[١٨]، ومما يؤكد على عظيم علاقة القرآن بشهر رمضان مدارسة جبريل عليه

السلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن عائشة رضي الله عنها في حديث طويل... قالت: إِنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُنِي أَنَّ جِبْرَائِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً، وَأَنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ(١٩).

فشهر رمضان شهر يصنع للمسلمين جوًّا قرآنيا، يستفيده كل صائم إذا صامه عن اهتمام وإخلاص، فترى المساجد والبيوتات تتغنى بالقرآن الكريم، وترى المجالس والملتقَيات يتبادل جُلَسَاؤها – إذا اجتمعوا فيها – ذكر القرآن وتلاوته والتفوق في العبادة على الآخرين، وإذا دخلتَ على الموظفين والتجار في مكاتبهم وأمكنة أعمالهم تجدهم يقرؤون القرآن، ويشارك في هذا التسابق والأجر والثواب كل صغير وكبير، وغني وفقير، ويحرصون على الاستزادة من التلاوة ليتسابقوا بالخيرات على الآخرين، فقراءة القرآن ومدارسته ليلا ونهارا تُعود الصائم قراءته وتلاوته وتدبره، وتغرس فيه حبه وحب العيش معه، فيبقى على ذلك فيما بعد رمضان، فيحظى دائما بأجر الله وثوابه، ويجدر بتكريم الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة.

شهر رمضان يعلّم النظام:

الصوم يعلّم في حياة المسلم النظام والدقة وضبط المواعيد، فالمسلم يستفيد في صومه النظام، فهو يفطر في وقت محدد، ويمسك عن الطعام في وقت محدد، ويراقب أوقات الصلاة بدقة وانتباه كامل، ففي غير رمضان يعيش الإنسان حياة فوضى لانظام ولاالتزام للأوقات والمواعيد، وينطلق انطلاقا غير مضبوط، فربما ينام الإنسان نوما أعشى، دون تقيد ونظام، وغير مبالٍ بحلول أوقات الصلاة والطعام والشراب، فقديتقدم وقديتأخر في أعماله، ويسير من غير نظام وترتيب، ولكن رمضان يعوده نظاما دقيقا للسهر والنوم ليلا ونهارا، فيلتزم به في الشهور الآتية كذلك، وينظم أعمال حياته تنظيما رتيبا يضبط عليه الأوقات، فيعود لايفرط فيها ولايفرّط، ويعطي كل عمل حقه، ويؤديه دونما تقصير وإهمال.

الصوم يخلق جوًّا للتعاون والإخاء والتسابق إلى الخيرات:

لقد ساعد الصوم كثيرا على خلق البيئة الإيمانية والإحسان وفي إشاعة روح المحبة والإخاء والتعاون في المجتمع، فهو مظهر رائع من مظاهر وحدة المسلمين وتماسكهم، فهم في كل الأرض ينتظرون بلهفة وشوق شهرَ الصيام، ويعيشون كلهم شهرا كاملا من العبادة والطاعة لخالقهم، فشهر رمضان يصنع لهم مجتمعا تنتشر فيه المبرات، وتُكسد المنكرات، وتبسط الأيدي بالصدقات، وتشرق الوجوه بما قدمت من الخيرات والحب والتعاون والإخاء والألفة بين أفراد المجتمع.

فالجو الإيماني الذي يعيشه الصائمون في شهر رمضان الفضيل من شأنه أن يوثق العلاقات بين قلوبهم ويشيع فيهم المحبة والإخاء وروح التعاون؛ إذ أن المؤمن يصوم مع إخوانه في جو اجتماعي متآلف، فالجميع يصومون في وقت واحد، ويفطرون في وقت واحد، ويستشعر كل فرد في المجتمع ما يستشعره الآخرون من الناحية الاجتماعية، فلا جرم أن ترى الصائمين متعاطفين متحابين يُولُّون وجوههم شطر المساجد والصلاة وذكر الله وتلاوة القرآن الكريم، وتكون مجالسهم متمركزة حول تبادل الكلام على فعل الخيرات والأعمال الصالحات، فيتساءلون ويتذاكرون كلما تلاقوا أو اجتمعوا في مجلس، فيتنافسون في الخيرات والصدقات والإحسان وصلة الأرحام وإطعام الطعام. ويتعاهدون المساكين وذوي الحاجات منهم بقضاء حوائجهم، وتقديم كل دعم لهم، حتى لايشعروا بالحرمان والبؤس والشقاء مادام فيهم هؤلاء الفاعلون للخير الذين يمسحون دموعهم، ويشاطرون أحزانهم وآلامهم.

وعلى كل، فصيام رمضان منحة ربانية للمسلمين، وفرصة محظوظة لإصلاح النفس وتهذيب الأخلاق، ومدرسة تربوية تربي النفس وتعلمها دروسا نافعة، وتترك على حياته وأعماله اليومية آثارا إيجابية إذا استحضرها الصائم فيما بعد رمضان تغيرت حياته كليًّا، وعاد غير ما كان عليه من قبل، وانقلب نموذجا أمثل ذا المستوى المطلوب في كل جهة من جهات الحياة، وحصل له قدمُ صدق عند ربه تعالى، شريطة أن يأتي صومه عن اهتمام وإقبال متكامل، وبُعد بعيد عن الإهمال والتقصير في أداء واجبات رمضان الفضيل.

* * *

الهوامش:

(١) مسند أحمد: ٨٨٥٦.
(٢) رواه البخاري برقم ١٨٠٤، باب من لم يدع قول الزور.
(٣) البقرة: ١٢.
(٤) تفسير الرازي: ٥/٢٤٠.
(٥) رواه الترمذي: ٢٦١٦ باب حرمة الصلاة.
(٦) البقرة ١٨٣.
(٧) رواه مالك برقم: ٨٥٣، باب جامع الصيام.
(٨) رواه البخاري برقم ١٨٠٤، باب من لم يدع قول الزور.
(٩) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، باب ماجاء في الغيبة والرفث للصائم.
(١٠) زاد المعاد، ٢/٣٥.
(١١) أيضا.
(١٢) شرح المشكاة للطيبي، ٢/٤٨٦.
(١٣) مفتاح دار السعادة ١٠/٨٦٧.
(١٤) رواه أحمد برقم: ٢٣٠٧٠.
(١٥) رواه البخاري برقم: ٦.
(١٦) لطائف المعارف ١٧١.
(١٧) أيضا.
(١٨) أيضا.
(١٩) رواه ابن ماجه برقم: ١٦٢١، باب ماجاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ.

* * *

شهر القرآن

بقلم: الشيخ/ علي البولاقي

«شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ».

١- في هذه الآية الكريمة من سورة البقرة وصف الله عز وجل شهر رمضان بإنزال القرآن فيه، وهذا الوصف مدح لشهر رمضان، وتبيين لشرفه على سائر الشهور بأن الله عز وجل اختاره من بينها لإنزال القرآن فيه.

وهو أيضا مختص بإنزال الكتب السماوية السابقة، فقد جاء في مسند الإمام أحمد من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال «أنزلت صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله تعالى القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان».

ومعنى إنزاله لأربع وعشرين خلت أنه نزل بعد تمام أربع وعشرين ليلة فيكون إنزاله في ليلة خمس وعشرين.

٢- وهذه الكتب المنزلة ما عدا القرآن نزل كل منها على الرسول الذي نزل عليه جملة واحدة.

وأما القرآن الكريم فمعلوم أنه نزل على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مفرقا من حين رسالته إلى قرب وفاته؛ لكن ظاهر هذه الآية وآية القدر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وآية الدخان ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ - ظاهر هذه الآيات كلها أنه نزل كله جملة واحدة في ليلة من ليالي شهر رمضان، وهو أيضًا ظاهر حديث واثلة السابق.

وهذا يثير في النفس تساؤلا: كيف يتسنى القول بنزول القرآن كله جملة واحدة مع ما هو معلوم يقينا من أنه نزل على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مفرقا في اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر تقريبا، حتى أن الكافرين قالوا كما حكى الله تعالى عنهم في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ﴾.

٣- وقد يجيب بعض الناس عن هذا التساؤل فيقول: إن الذي أنزل في الليلة المباركة وهي ليلة القدر من رمضان إنما هو أول القرآن نزولا وهو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فيكون قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ معناه شهر رمضان الذي ابتدئ فيه إنزال القرآن.

وقوله: «إنا أنزلناه» معناه إنا ابتدأنا إنزاله.

وهـذا الجـواب لـيس بـسديد؛ لأن فيـه حمـل الآيات على غير ظاهرها.

٤- والجـواب الـسديد هـو مـا أجـاب بـه حـبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في آثار صحيحة مروية عنه نكتفي منها بما يلي:

(أولا) أخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، يسمى بيت العزة.

(ثانيا) أخرج النسائي والحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة».

وقوله «في عشرين سنة» فيه إيجاز بالاقتصار على ذكر العقدين الكاملين وحذف الكسر وهو سنتان وخمسة أشهر تقريبا.

(ثالثا) أخرج ابن مردويه والبيهقي وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأله عطية بن الأسود فقال: وقع في قلبي الشك من قول الله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وقوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وقوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وقد أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا في الشهور والأيام».

وقولـه: «وقـع في قلبـي الـشك» لا يقـصد بـه حقيقة الشك فإن القرآن لايشك فيه مسلم وإنما مقصوده أن هذا التعارض الذي يبدو لأول وهلة يثير في النفس حيرة في الفهم مع إيمان بأن القرآن حق لا ريب فيه.

وقوله «أنزل على مواقع النجوم» معناه أنه أنزل مفرقا على مثل مساقط النجوم فإن النجوم تسقط أمام الأنظار في أوقات مختلفة يتبع بعضها بعضا.

وقوله «رسلا» بكسر الراء – معناه «تؤدة» أي في زمن طويل.

٥- ولا شـك أن نـزول القـرآن مـن اللـوح المحفـوظ إلى موضـع مخـصوص في الـسماء الـدنيا يسمى بيت العزة – لا يقوله ابن عباس رضي الله عنهما اجتهادا ولا تخمينا، فإنه من علم الغيب الذي لا يطلع الله عليه إلا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد يقول بعض المتشككين: لعل ابن عباس أخذ هذا عن بعض من أسلم من أهل الكتاب فإنه كان يأخذ عنهم بعض أقاويلهم.

وهذا التشكيك غير صحيح؛ فإن أهل الكتاب لا علم لهم إلا بما في كتبهم وأقاصيصهم ولا شأن لهم بنزول القرآن فإنه ليس من مجالات أحاديثهم.

فلا بد أن يكون ابن عباس رضي الله عنهما قد تلقى هـذا النبـأ الغيبـي مـن النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـشافهة أو مـن صـحابي جليـل، وهـذا الـصحابي الجليل تلقاه من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهـذا حكـى «القرطبـي» الإجمـاع عـلى نـزول

القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا.

٦- ولعل السر في تكرار النزول – على ما قال أبو شامة – تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة وأنه منزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم وذلك بإنزاله مرتين، مرة جملة ومرة مفرقا بخلاف الكتب السابقة فقد أنزل كل منها جملة مرة واحدة على الرسول من غير توسط نزولها من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

٧- والحديث عن هذه الحكمة يسوق إلى الحديث عن حكمة نزوله على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفرقا لا جملة واحدة وقد بين الله عز وجل هذه الحكمة في موضعين من الكتاب الكريم.

(الموضع الأول) قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

(الموضع الثاني) قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

وصدرُ آية الإسراء ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ يرشد إلى حكمة من حكم التفرقة، وهي أن يتيسر على الناس حفظه وفهمه، وتخليهم عن عقائدهم وأعمالهم الفاسدة بالتدريج وتحليهم بالعقائد والأعمال الصالحة بالتدريج أيضًا.

وآخرها «ونزلناه تنزيلا» يرشد إلى حكمة أخرى من حكم التفرقة وهي الدلالة على أن القرآن منزل من الله تعالى وليس من قول البشر فإنه مع نزوله مفرقا حسب الحوادث وإعجازه بهذا الترتيب الزمني كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر الكتبة كلما نزلت آية أن يضعوها بأمر الله تعالى بعد آية كذا من سورة كذا فكان ترتيبه في التلاوة غير ترتيبه في النزول وكان مع ذلك متناسبا أعظم التناسب؛ بل معجزا للخلق جميعا أن يأتوا بمثله، فهذا إعجاز متكرر مرتين.

(أولاهما) بترتيبه النزولي الزمني المتسق مع الوقائع.

(وثانيتهما) بترتيبه في التلاوة آيات وسورا طوالا وقصارا وأوساطا.

٨- والآية الأولى من آيتي «الفرقان»: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ ترشد إلى حكمة ثالثة وهي تثبيت قلب النبي ﷺ بتجدد الوحي ونزول الملك وهو أمر يدعو إلى طمأنينة القلب وانشراح الصدر مع ما في ذلك من تيسر الحفظ وتكرار انتصاره على الأعداء بتكرار عجزهم عن الإتيان بمثله كلما تحداهم.

والآية الكريمة الثانية من آيتي الفرقان ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ترشد إلى حكمة رابعة وهي مسايرة الحوادث بإجابة السائلين، وبيان حكم الله تعالى في

الوقائع المتجددة وتوجيه أنظار المسلمين إلى ما يقعون فيه من أخطاء أولا فأولا، وهتك أستار المنافقين والمشككين كلما هموا بأمر فيه كيد للإسلام والمسلمين.

وهذه الحكم الأربع يؤخذ بعضها من «الإتقان». وقد فصلها وأطال فيها كتاب «مناهل العرفان».

٩- عود على بدء.

لما تحدثنا عن وصف شهر رمضان بإنزال القرآن فيه تشعب بنا الحديث حول إنزال القرآن والكتب السماوية، ونعود إلى الآية مرة أخرى فنقول: إن الله عز وجل امتدح القرآن الكريم المنزل في شهر رمضان بأمرين:

(أولهما) أنه أنزله هاديا لجميع الناس ومرشدًا لهم إلى العقائد الحقة والأخلاق الكريمة والشريعة التي ارتضاها الله للناس جميعا من حين بعثه ﷺ إلى يوم القيامة فإنه خاتم الرسل المبعوث للناس كافة بما يصلحهم في أخراهم ودنياهم.

ولا يلزم من هداية القرآن للناس جميعًا – بهذا المعنى وهو الدلالة والإرشاد – أن يصيروا كلهم مؤمنين متقين صالحين، كما لا يلزم من ظهور الشمس أمام جميع الناس أن يكونوا كلهم مبصرين واصلين إلى مقاصدهم.

وقد وصف الله عز وجل القرآن في أول هذه السورة – البقرة – بأنه هدى للمتقين حيث قال ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا الهدى هو الإيصال إلى الحق والخير والسعادة، ولهذا كان مخصوصا بالمتقين أي الذين لديهم استعداد للتقوى أو الذين قدر الله لهم أن يكونوا من المتقين.

وكذلك قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ مع قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

فالرحمة في الآية الأولى هي الإحسان إلى المؤمنين بالسعادة الأخروية والرحمة في الآية الثانية هي الإحسان إلى العالمين بالإرشاد والدلالة على ما فيه الخير والسعادة.

(والأمر الثاني) الذي وصف الله به القرآن المنزل في رمضان أنه أنزله آيات واضحات من جملة الآيات التي أنزلها الله في كتبه هادية للأمم ومفرقة بين الحق والباطل.

وامتداح القرآن بهذين الأمرين تعظيم وتشريف يؤدي إلى تشريف الشهر الذي أنزل فيه ويرشد إلى حكمة تخصيصه بفريضة الصيام فإن في الصيام تأديب النفس بمنعها عن أعظم مشتهياتها امتثالا لأمر الله تعالى وإخلاصا لعبوديته وبه يستنير القلب فيتقبل الحق، ويتغلب على الباطل، وهذا يناسب إنزال القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم.

١٠- وللقرآن الكريم شرف لا يستقصى وفضائل لا تحصى فمن ذلك أن الله عز وجل

وصـفه بـالكريم، والمبـين، والعظـيم، والحكـيم، والمجيـد، والكتـاب الـذي لا ريـب فيـه، والمبـارك، والقـيم الـذي لا عـوج لـه، والعزيـز الـذي لا يأتيـه الباطـل مـن بين يديه ولا مـن خلفه، والمثـاني الـذي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، والمصدق لما بين يديه والهدى، والرحمة، والنور، والشفاء.

وأمر بتلاوته ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ وحث على تدبره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ وأمر بترتيله ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ وحذر من الإعراض عنه ونسيانه ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾.

١١- وإذا وجـب عـلى المـسلمين الاعتنـاء بـالقرآن الكـريم حفظـا وتـلاوة وفهـما وعمـلا – في جميع أوقاتهم – ففي شهر رمضان شهر القرآن تجب مضاعفة هذا الاعتناء وقد كان جبريل عليه الصلاة والسلام يدارس النبي ﷺ القرآن في شهر رمضان، ومعنى المدارسة أن جبريل كان يقرأ شيئا من القرآن ثم يقرأ النبي ﷺ نفس ما قرأه عليه جبريل. وفي العام الأخير دارسه القرآن مرتين في شهر رمضان.

وكـان النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هـو وأصـحابه الكـرام رضي الله عـنهم يحزبـون القـرآن في رمـضان وفي غير رمضان فيجعلونه سبعة أحزاب ويقرؤونه في أسبوع، وقـد ورد مـا يفيـد أن الحـزب الأول مـن الفاتحة والثاني من المائدة والثالث من يونس والرابع مـن الإسراء والخـامس مـن الـشعراء والـسادس مـن الصافات والسابع من (ق) إلى آخر القرآن.

وكـانوا يقرؤونـه بـالتغني كـما نـسمعه اليـوم مـن الذين يقرؤون المصحف المرتل خلافا لما يجنح إليه بعـض النـاس مـن تلاوتـه في الـصلاة بطريقـة تـشبه الخطابة تارة، وتشبه قراءة المقالات تارة أخرى.

وفي حـديث أبي هريـرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قـال «لـيس منـا مـن لم يـتغن بـالقرآن يجهر به» ومعنى التغنى تحزين القراءة وترقيقها من غير تصنع ظاهر وخروج عن أحكام التلاوة.

١٢- وإنما ضربنا المثل بقراءة المصحف المرتل لأنها تتفق مع أحكام الأداء.

وأما القراءة البطيئة التي نسمعها في الإذاعات وغيرها فمنها ما يتفق مع أحكام الأداء أيضًا ومنها ما يختلف قليلا أو كثيرا عن هذه الأحكام بما فيه من زيادة الغن والمد والبطء في النطق حتى تصير الحركة التـي لـيس بعـدها مـد كأنهـا ممـدودة ومراعـاة الفـن الموسيقي بالتكلف في تنويع الصوت رفعا وخفضا وتغليظا وترقيقا وترعيدا، وتمطيطا وإبعادا للحروف عن صفاتها العربية.

وأود هنـا تـذكير المتهـاونين بأحكـام الأداء بـأن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم ينـزل عليـه مـصحف مكتـوب وإنـما نـزل عليـه قـرآن قـرأه جبريـل عليـه الصلاة والسلام وسمعه منه رسول الله ﷺ وقرأه الرسول على أصحابه وقرأه أصحابه على أصحابهم

وانتقل جيلا بعد جيل سماعا وقراءة.

ومن المحال تبليغ القراءة خالية عن كيفيتها فالذين قرؤوا القرآن من الصحابة وغيرهم لم يقرؤوا حروفا خالية عن الصفات والحركات والسكنات وإنما قرؤوا كل حرف خارجا من مخرجه متصفا بصفته من ترقيق وتفخيم وإظهار وإخفاء وإدغام وقلب وقلقلة وغنة مقدرة بمقدار مخصوص ومد مقدر بمقدار لا يزيد عنه ولا ينقص، وليس اتصاف الحرف بهذه الصفات أقل شأنا من اتصافه بالفتح والكسر والضم والسكون فكما يكون العدول عن الفتح إلى الكسر وعن الكسر إلى الضم خطأ؛ بل خطيئة. كذلك يعد العدول عن الصفة المتواترة خطأ وخطيئة؛ لأنها نزل بها الوحي وبلغها الرسول للأمة وجمعها الثقات العدول من علماء القرآن ودونوها مفصلة موضحة وسموها «التجويد».

ومن هنا قال العلامة شمس الدين ابن الجذري في منظومته:

والأخذ بالتجويد حتم لازم
من لم يجود القرآن آثم
لأنه بـــه الإلـــه أنزلا
وهكذا منه إلينا وصلا

فدليل وجوب التجويد هو: السنة المتواترة، وهي من أعظم الأدلة.

وإنما نبهت على هذا لأن كثيرًا ممن تلقوا من العلوم الدينية أو الدنيوية قسطا وافرا قد تهاونوا بهذه الأحكام حتى إن الحليم يكاد يتميز من الغيظ حينما يسمع بعض خطباء المساجد وأئمتها يلحنون في القرآن حتى الفاتحة، ومن لم يلحن منهم في الإعراب يسرد القرآن سردا خاليا مما يجب فيه من غن ومد وإخفاء وإدغام وغير ذلك ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٣- وبعد.. فشهر رمضان شهر القرآن يذكرنا بقوله ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: (الم) حرف، ولكن (الف) حرف و (لام) حرف و(ميم) حرف» رواه الترمذي وصححه.

وبقوله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» رواه البخاري ومسلم.

ومعنى «يتتعتع» يتردد في القراءة لعجز في لسانه، وليس معناه أنه يتردد لجهله بالقراءة وأحكامها؛ فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم كما قال رسول الله ﷺ، فمن كان تردده للجهل وكان مقصرا متهاونا أو متكبرا عن طلب العلم فليس له أجران ولا أجر؛ بل هو آثم عاص.

كما يذكرنا هذا الشهر الكريم بقوله عليه الصلاة والسلام: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» رواه أبوداود.

الشيخ العلامة السيد حسين أحمد المدني وروائع من حبه للرسول صلى الله عليه وسلم

بقلم: **الأستاذ/ شكيل منصور القاسمي**(*)

ما الحب؟

الحب لغةً هو صفاء المودة وميل القلب وانجذابه إلى المحبوب، وذلك يطبع الإنسان بمشاعر وسلوك وعواطف وأحاسيس، حتى قد يضحي المحب بكل غال ورخيص في سيل إرضاء حبه وقد يفنى عن نفسه ويتحول عن صفاته إلى صفات محبوبه.

وعرّف القاضي عياض المحبة بالميل إلى ما يوافق الإنسان ثم ذكر أسباب الميل ووسائل المحبة مبسوطة(١).

المحبة اصطلاحا

اختلفت أقوال العلماء في معناها؛ ولكنها في الأصل اختلاف أحوال لا اختلاف مقال، والخلاف في ذلك راجع إلى ثمرتها وأسبابها، وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، دون حقيقتها.

قال الحافظ: وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لاتُحدّ، وإنما يعرفها من قامت به وجدانا ولايمكن التعبير عنها(٢).

يُعلم منه أن حبَّ المسلم لرسول الله -ﷺ- عمل قلبيّ من أجَلِّ أعمال القلوب، وأمر وجداني يجده المسلم في قلبه، وعاطفة طيبة تجيش بها نفسه، وإن تفاوَتت درجة الشعور بهذا الحب؛ تبعًا لقوة الإيمان، أو ضَعفه.

قال ابن القيم رحمه الله: «المحبة لاتحد(٣) أي لايذكر لها تعريف، إذ هي أمر ينبعث بنفس يصعب التعبير عنه.

فمحبة الرسول ﷺ ليست هي دعوى ولا تمنيات، ولا مجرد ذكره باللسان وإقامة الموالد، وإنشاء القصائد والمدائح في مناسبات مخصوصة وإخراج جناب الرسول ﷺ عن حد البشرية ورفعه إلى مرتبة الألوهية؛ بل محبة الرسول في أصح التعبير وأشمله هي حياة تُعاش، ومنهج يُتَّبع، محبة الرسول لابد أن تكون في سويداء القلب والنفس، فتتحرك بها المشاعر وتنصبغ بها الحياة كلها، لابد أن تكون هي السمت والصبغة التي يكون عليها المسلم في سائر أحواله وجوارحه وأعماله.

محبة الرسول محبة تفوق محبة الأم والأب والولد ومحبة النفس بل أكثر من محبة المرء نفسه،

(*) أستاذ الحديث النبوي الشريف في جمهورية سورينام (أمريكا الجنوبية)

وهي محبة مخلدة في قلوب البشر.

ومحبــة الرســول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصــل شرفنــا ومصدر فخرنا، وهي عصارة الإيمان ومن صميمه لا من هامشه، وأصل من أصول الدين، ليست أمرًا مخيرًا فيه؛ بل هي فرض على كل مؤمن، لا إيمان لمن لم يكن النبي أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين، هذا ما أجمع عليه المسلمون.

وكما أسلفتُ لايكفي فيها الادعاء المحض والقول اللفظي؛ بل يلزم أن تصحبها أفعال عديدة تدل عليها وتنقلها من مجرد الأحاسيس إلى حيز الأفعال وأرض الواقع، كما يلزم أن يترجمها المؤمن بسلوكه وتصرفاته ويحولها إلى واقع عملي محسوس وملموس وأن يوافق نبيه وقدوته في حب ما يحب وبغض ما يبغض وأن يرتبط بنبيه بالقلب والقالب والنفس والنفيس والعقل والفكر والأحوال والأعمال.

مظاهر حب الصحابة رضي اللّٰه عنهم للرسول ﷺ

وقد ترجم الصحابة الكرام حبّ النبي عليه الصلاة والسلام ترجمة عمليةً محسوسةً في جميع شؤون الحياة في العبادة وفي الأخلاق وفي السلوك وفي المعاملات وفي الآداب حبًّا وفداءً للرسول الكريم وقدّموا حبه على كلّ المكونات والموجودات وقد تابعوا نبيَّهم في جميعِ أقواله وأفعاله، صغيرها وكبيرها، واجتهدوا في تبليغِ سُنّته، وضربوا أعظم الأمثلة في حُبّهم للنبيّ – عليه الصلاةُ والسلام- ومظاهر محبة الصحابة لرسول الله ﷺ لاتكاد تحصى، فقد ظهرت جلية واضحة في مواقف كثيرة ومواطن عديدة لايسع استيعابها هذا المقال الموجز.

منهج علماء ديوبند وموقفهم من الحب والبغض

فبدءًا من الصحابة الكرام والتابعين العظام ومرورًا بأولياء الأمة وصلحائها وصل هذا الجوهر النقي النيّر بكل شعائره وبهجته وأنواره إلى علماء ديوبند الذين عجنت طينتهم بحب النبي الصافي الخالص المتوارث عن الصحابة من غير شطط وغلو وابتداع، والذين يتميزون بمنهج الاعتدال والتوازن في العقيدة و بالبعد عن الإطراء والمبالغة في المدح والثناء وعن البغض والإساءة والهجو، والذين يقفون موقف العدل والاحتياط من الأنبياء والصحابة والصالحين، وصاغوا حياتهم في قالب الحب لله ولرسوله وطبقوا محبة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علمًا وعملًا وفقهًا وعقيدةً وخلقًا وسلوكًا.

ومن أبرز تلامذة علماء ديوبند

هذا العلامة والداعية أحد النوابغ والعباقرة العلمية والروحية وأحد أعلام الهند وكبير علمائها الربانيين، نتوخى أن نتعرف على بعض نماذج محبته النبوية المتدفقة وعاطفته المشبوبة وكمال متابعته.

واستمد هذه القوة الروحية والاعتزاز بحب النبي العربي –صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ– من أساتذته ومشايخه ثم تبعهم في مسيرته وانتهج منهجهم في جميع ما قام به من إسعاد الأمة الإسلامية ونفع العباد والبلاد

وجلائل الأعمال القيادية.

نبذة وجيزة عن حياته ومآثره

هو الشيخ العلامة المجاهد السيد حسين أحمد المدني بن حبيب الله الملقب بشيخ الإسلام ولد في التاسع عشر من شوال سنة ١٢٩٦هـ الموافق ١٨٧٩م في أسرة السادة الكرام بقرية «بانكر مئو» من أعمال «أُنّاؤ» في الهند، وتلقى مبادئ العلوم في «تاندا» وطن آبائه من مديرية «فيض آباد»، أترابراديش (الهند). وفي سنة ١٣٠٩هـ سافر إلى دارالعلوم بديوبند وفيها أخذ العلوم والفنون عن العديد من الأساتذة الأجلاء في فترة حوالي ثماني سنوات، ومن أبرزهم: الشيخ العلامة محمود حسن الديوبندي المعروف بشيخ الهند – رئيس هيئة التدريس وشيخ الحديث بدارالعلوم ديوبند – والشيخ الأديب ذوالفقار علي الديوبندي، والشيخ العلامة المحدث خليل أحمد السهارنبوري صاحب بذل المجهود في شرح سنن أبي داود، والشيخ المفتي عزيزالرحمن العثماني، والشيخ حبيب الرحمن العثماني، والشيخ الحافظ محمد أحمد (ابن حضرة الإمام محمد قاسم النانوتوي)، والشيخ غلام رسول الهزاروي، والشيخ الحكيم محمد حسن (الأخ الأصغر لشيخ الهند) وغيرهم من المشاهير الكبار رحمهم الله.

والشيخ المدني وإن كان قد درس خلال مسيرته التعليمية على شيوخ وشخصيات كبيرة، لكنه تأثر بشدة في البعد الفكري والإصلاحي والخلقي بأفكار العلامة المجاهد محمود حسن الديوبندي رحمه الله الذي لازمه مدة طويلة واشتغل معه في النشاطات والكفاحات، حتى صار الساعد الأيمن له، وكان من تلاميذه المميزين، وبعد الفراغ من العلوم السائدة سيطر عليه التفكير في الإحسان وتزكية الأخلاق، فاستشار شيخه العلامة محمود حسن الديوبندي الذي أرشده إلى العلامة رشيد أحمد الكنكوهي، فبايع الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في الطريقة والسلوك، وتلقى التربية الروحية وتخرج عليه في التزكية القلبية والإحسان، ثم أجازه شيخه الكنكوهي بالبيعة والإرشاد والتلقين.

رحلته إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة بصحبة والده:

وأثناء إقامته بالمدينة المنورة لمدة ثمانية عشر عامًا، قام بتدريس مختلف العلوم والفنون، وخاصةً الحديث النبوي الشريف. كانت حياة الشيخ مليئة بالزهد والقناعة، والجهد والعناء، عاشها في هذه الفترة بصبر واحتساب. وأثناء إقامته بالمدينة المنورة زار الهند عام ١٣١٨هـ ثم عاد إليها عام ١٣٢٠هـ وفي عام ١٣٢٧هـ عين مدرسًا بجامعته الأم دارالعلوم بديوبند وقام بالتدريس حتى عام ١٣٢٩هـ، ثم عاد إلى المدينة المنورة في نفس العام، وفي عام ١٣٣١هـ عاد إلى الهند ثم عاد إلى المدينة المنورة في نفس العام.

أيام الحرب العالمية أسر هو وشيخَه محمود حسن أميرُ مكة. الشريف الحسين – الخارج والباغي

عـلى الدولـة العثمانيـة بإيعـاز مـن الحكومـة الهنديـة الإنجليزيـة، وتـم ترحيلـه بـصحبة شـيخه العلامـة محمـود حسن الديوبنـدي إلى مـصر ثـم إلى «مالطـه» لمدة ثلاث سنين وشهرين. وفي عام ١٣٣٨هـ أفرج عنه ثم عاد إلى الهند وبدأ يعمل في دارالعلوم ديوبند كأسـتاذ للحـديث الـشريف ورئـيسٍ للمدرسـين، وسـاهم بـإشراف أسـتاذه وشـيخه العلامـة محمـود حـسن الديوبنـدي في تحريـر بـلاده مـن الاسـتعمار الإنجليـزي، وبـدأ يلقـي المحـاضرات والخطـب الحماسية ضد الاستعمار الإنجليزي فتم القبض عليه مرة أخرى في جمادى الآخرة ١٣٦١هـ وسجن لمدة سنتين وعدة أشهر في سجن «مراد آباد» وسجن «إله آبـاد» إلى أن أطلـق سراحـه في الـسادس مـن رمـضان ١٣٦٣هـ واسـتمر في جهـاده بـالتعليم ومناهـضة الاستعمار إلى أن وافاه الأجل في الثالـث عـشر مـن جمادى الأولى سنة ١٣٧٧هـ.

نبوغه في علم الحديث:

إلى جانـب انـشغال وجهـود الـشيخ الجبـارة في تحرير الهند مع مناصرتـه للأحـزاب التحريريـة كـان أحد أعلام الهند وكبير علمائها الربانيين، قام بأعمال جليلة نحو الأمة الإسلامية يتجمل بها تاريخ الهند الإسلامي، كان الشيخ المدني يهتم بجانب هام ميّز شخـصيته هـو اختـصاصه بعلـم الحـديث النبـوي الـشريف، كـان النـاس يعتبرونـه رئيس جميـع العلـماء الربـانيين في عـصره، ولـذلك تـولى في أكـبر وأوثـق جامعات الهند في العلوم الشرعية دارالعلوم بديوبند منصبًا رفيعًا ومنزلةً ساميةً ومكانةً عاليةً لتدريس الحديث الشريف أعني منصب «شيخ الحديث» فقد نفع بعنايته الخاصة في هذا المجال آلافًا من المنتمين إليه، كان الشيخ يعتبر نابغةً في علم الحديث، يفتخر الناس بالتتلمذ عليه والانتماء إليه.

ولم يكتـف الـشيخ بهـذا الجانـب العلمـي والقيـادي فحـسب؛ بـل كانـت لـه مكانـة عاليـة في السيرة والتزكية والتربية الروحية. وظل طول حياته موثوقًا به لدى جميع الطبقات بتربيته الربانية وتزكية القلوب وتطهيرها(٤).

التحنن إلى المدينة المنورة ومعالمها:

يقـول الـشيخ وهـو يقـدِّم النـصائح لأحـد سالكيه: «أما قصدك السفر إلى الحرم المكي وزيارة المدينة المنورة فأمر ميمون ومبارك للغاية، أي مؤمن لا يتأصل حب مدينة الرسول في قلبه، ولا يشتاق قلبه ولا تحن نفسه إلى زيارتها؟ ولكن لا بد من النظر في الظروف وفي عواقب الأمور، فإن البقاء في الهند والتفاني في حب المدينة والتشوق إلى زيارتها أفضل ألـف مرة مـن أن تقيم في المدينـة المنـورة وتمـوت في سبيل الهند(٥).

البدءُ بزيارة قبر الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم أفـضل من التوجه إلى مكة المكرمة

الـسفر إلى المدينـة المنـورة بغـرض زيـارة قـبر رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقـصدها مـن المـسائل

الخلافية المشهورة بين العلماء والأئمة.

استحب جمهور العلماء من الأئمة الأربعة وأجمعوا وتعاملوا على جواز السفر لزيارة قبور الأنبياء أمثال أمام الحرمين والغزالي والسيوطي وابن حجر المكي وابن الهمام والحافظ ابن حجر والنووي، والقاضي عياض والعيني والقسطلاني وغيرهم؛ فإنهم اتفقوا على جواز قصد قبر النبي بالزيارة، ورأى بعضهم كالحافظ ابن تيمية أنه إن تمحضت نية المسافر لزيارة القبر النبوي فلا يشرع، أما إن نوى الزائر مسجد النبي فلا يضره زيارة القبر تبعًا.

وقد أفرد العلماء الأجلاء بتصانيف مستقلة وفصول وأبحاث مفردة في بيان جواز زيارة روضة النبي والسفر لها واستوعبوا ما جاء فيها من الحجج والفضائل، ودلائل الفريقين مذكورة في مظانها لاحاجة إلى إعادتها هنا(٦).

نعم بقي أن الزائر بم يبدأ: بمكة المكرمة؟ أم بالمدينة المنورة؟ فكما روى الحسن عن أبي حنيفة أنه إذا كان الحج فرضا فالأحسن للحاج أن يبدأ بالحج ثم يثني بالزيارة ما لم يمر بالمدينة، وإن بدأ بالزيارة جاز، إذ يجوز تقديم النفل على الفرض إذا لم يخش الفوت بالإجماع. فإن مر بالمدينة المنورة كأهل الشام، بدأ بالزيارة لا محالة لأن تركها مع قربها يعد من القساوة والشقاوة، وتكون الزيارة حينئذ بمنزلة الوسيلة وفي مرتبة السنة القبلية للصلاة(٧).

والشخ حسين أحمد المدني لما كان يمتاز بمحبته العميقة المتدفقة تجاهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومشاعره الجياشة، وميله العاصف، استحب البدء بزيارة قبر النبي فقال في إحدى خطبه عام ١٣٧٤ هجرية عندما سافر للحج آخر مرة:

«إذا كنتم تحملون محبة الله ورسوله فتواضعوا ما أمكنكم، وصلوا ما استطعتم على سيد المحبين ومحبوب رب العالمين (عليه الصلاة والسلام)، وأكثروا من تلاوة القرآن الكريم، والصلوات على النبي، وأهدوا ثوابها إلى قائد طريق الحب لله (ﷺ).

أما أنا وجماعة من أهل الهلم فنفضّل أن يتوجه الحاج والمعتمر إلى المدينة المنورة أولًا، ويتمّ زيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينهي الإقامة فيها ثم يثني بالتوجه إلى مكة المكرمة ويحرم بالحج أو بالعمرة أو بهما معًا»(٨).

الشجرة التي كان النبي ﷺ جلس تحتها في بيعة الرضوان:

من الطبيعي أن الإنسان إذا أحب شيئًا أحب كل متعلقاته وكل شيء يتصل به أو يذكره به. كما أن الناس يحبون الزهور وحسنها وبهاءها؛ لكن الشيخ المدني نراه يحب الأشواك أيضًا، لأنها جزء من حديقة سيرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. زرع الشيخ شجرة سمرة في حديقة دارالعلوم ديوبند، فاستغرب الناس واستنكروا وتحيروا، وجرى التساؤل فيما بينهم ما فائدة هذه الشجرة؟ فلا زهور تبدو ولا ثمار، ولا ريح فيها ولا جمال؟ فلماذا قام الشيخ بغرسها وكشف البحث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بايع

أصحابه بالحديبية على مناجزة قريش الحرب وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدبر، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة سمرة. والنبي كان جالسًا تحت هذه الشجرة، وكان الذين بايعوه هذه البيعة فيما ذُكر في قول بعضهم: ألفا وأربع مئة فوضعت هذه الشجرة في حديقة دارالعلوم تذكارًا لهذه الواقعة التاريخية.

تدل الواقعة على لهفته وشوقه وما يفيض به قلبه من حبه العميق وحنينه الغائر إلى متعلقات الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما يتصل به أو يذكر[٩].

حبُّ الشيخ لأسلوب الرسول ﷺ في التحدّث والتكلم:

من المعلوم لدى أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان يتمهَّل في نُطقه دون إسراعٍ يُضيع المعنى، ويُفقِد السامعَ التواصُلَ، أو بُطْءٍ يُمِلُّ السامعَ، ويُفقِده الانتباهَ؛ بل كان يتكلَّم ويحاور بوضوحٍ دون تقعُّر أو غموض في المعنى أو اللفظ. وكان إذا تكلم فذو نُطقٍ واضحٍ، تَظهَر الكلماتُ بوضوح في حديثه. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْرد سَرْدَكم هذا، ولكن كان يتكلَّم بكلامٍ يُبيِّنه، فصْل، يحفظه مَن جلس إليه، وكان كثيرًا ما يُعيد الكلامَ ثلاثًا؛ ليُعقَل عنه»[١٠].

ويقول الإمام ابن القيم: «إنَّ كلامه يأخذ القلوبَ، ويَسْبي الأرواحَ، ويَشهَد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلَّم تكلَّم بكلامٍ مفصَّل، مبين، يَعُدُّه العادُّ ليس بهذٍّ مُسْرِع لا يحفظ، ولا منقطعٍ تَخَلَّلُه السكتات بين أفراد الكلام، بل هدْيُه فيه أَكْمَل الهدْي»[١١].

كان الشيخ المدني جعل حب النبي ﷺ نصب عينه، فيرى أن التأسي بسنته وهديه في أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته ألذّ إليه من كل شيء.

ومن ذلك أنه كان يمتاز بمنطقه وجمال فصاحته، كان في أسلوب تحاوره سحر متميز وجاذبية خاصة تجذب الآذان وتفتح القلوب، واستمد هذا الأسلوب من الهدي النبوي.

قال الشيخ ذات مرة لتلاميذه أثناء تدريسه لصحيح البخاري:

«وبإذن الله أستطيع أن أتكلم بسرعة. ولكن هذا التوقف والترسل في الكلام تحصلته بعد جهد كبير[١٢] كما تروي عائشة الصديقة رضي الله عنها في إحدى رواياتها».

كان يلتقط القشور من شوارع المدينة المنورة ...

إن صُفّة المسجد النبوي الشريف تحتل مكانة مميزة في قلوب كل المسلمين حول العالم. فزيارتها والصلاة فيها والقيام بالمدينة المنورة وقضاء أكثر الأوقات المتاحة في جوها هي حُلم كل مسلم. والروضة الشريفة وجهة رئيسة لكل من يقوم بالحج والعمرة، حيث يتوافد إليها سنويًا الملايين من المسلمين لأداء العمرة والحج، وزيارة قبر النبي ﷺ، وقبور صحابته الكرام من أطهر الأماني لكل مؤمن متوافد من بقاع العالم.

وهذا الشيخ المدني لم يوفق للإقامة فيها شهرًا أو عامًا فحسب؛ بل سعد بالتدريس في ظل الروضة الشريفة ثمانية عشر عامًا اعتاد كل ليلة بعد العشاء أن يلتقط قشور الخضراوات التي يرميها أهل المدينة في الشوارع، فيغسلها بالماء ثم يمضغها ويُسيغها، وكان بعد الشرب يقوم في رياض الجنة فيقرأ القرآن الكريم طوال الليل(١٣). سبحان الله العظيم!

يتبين منه حبه للرسول ﷺ متمثلًا في حرصه على كلّ شيء انتمى إلى الرسول أو إلى مدينته وشوارعه.

الثبات المنقطع النظير والهمة العالية:

في إحدى المراحل في عصر الحاكم البريطاني الغاشم عندما نصح الشيخَ أصحابُه بالبقاء مختفيًا وعدم الخروج إلى الأماكن العامة كي لا يتعرض للاعتقال والإيذاء والتعذيب الجسدي، اختارَ الشيخ طريق خبيب بن عدي، طريق العزيمة والشجاعة، طريق البطولة والكفاح، فقال: يا أخي، أنت تقول: إن فيها أنواعًا من العذاب عظيمة، ولكن كل هذا العذاب والمعاناة يجب أن يُحتمل، وأستلذُّها وأعتبر كل ذلك راحة لي في سبيل الله، فإن كل إهانة وعذاب في سبيل الله وحب الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعتبره شرفًا وعزةً وكرامةً، أما الموت فلا يأتي إلا مرةً واحدة، ولا يمكن تأخير الوقت الموعود وتغيير الوجه الذي قدر الله(١٤).

بطولة نادرة وبسالة فذة:

لقد ضرب الشيخ أروع أمثلة للثبات والمضاء والمنعة والولاء حينما طلب إلى المحكمة الإنجليزية بكراتشي لأجل فتواه المشهورة التي أصدرها وقال فيها بتحريم العمل في الجيش البريطاني.

سأله القاضي الإنجليزي: يا حسين أحمد! هل قلتَ في خطابك الفلاني: الالتحاق بالجيش البريطاني ممنوع؟

فقال الشيخ المدني من دون أدنى جزعٍ ولاترددٍ ولا تراجعٍ بلهجة صادقة واثقةٍ: نعم، قلتُه وما زلت أقول حتى الآن: إن انضمام المسلمين إلى جيشهم حرام، وخيانة للإسلام. فقال القاضي الإنجليزي: أتدري ما العقوبة؟ وفي هذه اللحظة الشديدة القلقة، التي تتقلب فيها القلوب والأبصار، بقي الشيخ صامدًا لآخر نفس؛ لأن الله يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت، فأجاب الشيخ ببسالة فذة وشجاعة عجيبة وفداء كبير، وأخرج قطعة القماش من تحت إبطه ووضعها على الطاولة أمام القاضي وقال: إن العقوبة معروفة، ولذا أحضرتُ الكفن معي من ديوبند حتى إذا رفعوني إلى عود المشنقة كفنوني فيه وأستغني عن كفن الحكومة الإنجليزية.

انظروا هذا البطل المِقدام الجليل، والصابر المحتسب، والمجاهد الصنديد، كيف يقدم حياته نصرةً لدين الله، وكيف يثبت على المبادئ الصادقة، كيف يصدع بالحق، وكيف يصبر على المكاره الشديدة، وكيف يتهيأ لبذل النفس لمالكها الذي

اشتراها من المؤمنين، وكيف يبيعُ الحياة الدنيا الفانية بالحياة الآخرة الباقية؟، ظلّ صامدًا كالصخرة لم يهبْ الموت، ولم يخشَ المنيّة، ولم يخفْ بطش العدو ولاتهديده ولاتعذيبه ولا وعيده.

وأخيرًا حكم عليه بسجن سنتين مع الأعمال الشاقة(١٥).

اتباع السنة خير من كشف وكرامة:

الكشف والمشاهدة، والوجد والزهد المطلق والتزام الخلوة ليست من كمال المرء في شيء إذا لم يكن ذلك منصبغًا باتباع السنة في أقواله وأفعاله ومتحليًا بخلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. من تعمق في دراسة حياة شيخ الإسلام يجده مؤثرًا محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كل المكونات والموجودات والمرغوبات، فكان اتباع الشريعة روحه وطاعة الرسول واتباعه في كل أمر غريزته، تتحرك مشاعره بحب الرسول، وكان يرى اتباع السنة النبوية خيرا من وجد وحضرة ومشاهدة وكرامة(١٦).

أروع مثال للحياة الإسلامية:

من أبرز خصائص حياة شيخ الإسلام المثالية اتباعه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتنفيذ سنته وتطبيقه بالامتثال العملي لأمره ونهيه في كل حين من حياته وفي كل جزء من أجزاء عمره. وكان حب الرسول قد سرى في قلبه وجسده، وغلب على عقله وفكره، وقد ازداد وقوي مع مرور السن. عاش مدة حياته وطيلة عمره في المنشط والمكره في حب نبيه وإحياء سنته، وكان يُعتبر علامة ممتازة في عصره في التمسك بالهدي النبوي والتخلق بأخلاقه، وتجيش نفسه بحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاستنان بسنته، والحق يقال: كان أروع مثال في اتباع سنة النبي صغيرها وكبيرها قولًا وعملًا ودعوةً.

وإذا سألني أحد: ما هي الحياة الإسلامية في شكل عملي محسوس ملموس؟ استطعت أن أقول بكل ثقة وإنصاف وبدون أدنى تردد وتراجع: «حياة الشيخ البطل الفذ حسين أحمد المدني».

إجلاله لمكانة الرسول ﷺ عند التحديث عنه:

عاش الشيخ المدني طيلة حياته في حب النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقد بلغ إجلال النبي محمد ﷺ في قلبه مبلغًا عظيمًا حتى أثر في وجهه ومقاله وسلوكه وأحواله كلها، ولا يكاد يُذكر اسم النبي ﷺ لديه إلا تغير وجهه وتبدل مقاله إجلالاً وتقديرًا لمكانته عليه الصلاة والسلام وسنته. ومن تعظيم جناب النبي عليه الصلاة والسلام عنده أمره بالسكوت في حلقة التحديث ووجوب الاستماع قلبًا وقالبًا وعدم التحرك جسمًا كأنه في الصلاة لايبدل جِلسته ساعات طوالًا.

وعندما عاد إلى المدينة المنورة مرة أخرى عام ١٣٢٠هـ، اتسعت حلقة تدريسه في المسجد النبوي الشريف، فكان يدرس ١٥/١٤ كتابًا من الحديث والتفسير والفقه وما إلى ذلك، وقد بلغت هيبته وتعظيمه وإجلاله لمكان الرسول وكلامه مبلغًا

يقول أثناء التحديث «قال صاحب هذا القبر» بدل أن يقول «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١٧).

ظل الشيخ يدرس الحديث الشريف ثمانية عشر عامًا في رحاب المسجد النبوي والروضة الشريفة بعواطفه الجياشة ومشاعره المرتبطة بالمحبة الصادقة الخالصة.

وقد ورث عنه هذا الإجلال والتوقير لكلام الرسول تلميذُه البار، الشيخ الجليل وأحد النوابغ أستاذ الأساتذة المحدث العلامة نصير أحمد خان رحمه الله (١٣٣٥-١٤٣١هـ = ١٩١٦-٢٠١٠م) رئيس مشيخة الحديث وهيئة التدريس لدارالعلوم ديوبند، عندما قرأتُ عليه صحيح البخاري عام ١٤٢٠هـ فكان يدرس صحيح البخاري ساعات طويلة متواصلة؛ من دون أن يغير هيئته وجلسته ولو مرة واحدة رغم ضعفه وكبر سنه.

وفاته

انتقل إلى رحمة الله تعالى في ١٢/جمادى الأولى عام ١٣٧٧هـ الموافق ٥/ديسمبر ١٩٥٧م، عن عمر يناهز ٨١ عامًا وصلى عليه ريحانة الهند الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله صلاة الجنازة، ودفن جثمانه في «المقبرة القاسمية» بجوار أستاذه حضرة شيخ الهند محمود حسن الديوبندي.

وخلف وراءه أبناء وأحفادًا أمثال الشيخ السيد محمد أسعد المدني رحمه الله والشيخ السيد محمد أرشد المدني والشيخ السيد أسجد المدني وبنات عديدات، ولهم أعمال جليلة وإسهامات كثيرة وجهود جبارة في مجال نشر الدين والتعليم الإسلامي وخدمة الإنسانية(١٨).

من أهم خصاله وأوصافه

كان الشيخ حسين أحمد المدني من نوادر العصر وأفراد الرجال صدقًا وإخلاصًا، كان معروفًا بعلو همته وأخلاقه ونزاهة باطنه وقوة إرادته، وشهامة نفسه، وصبره على المكاره، كان جوادا كريمًا لايرد أحد المحتاجين، يكرم جلساءه، ويحترم أهل العلم، يشفع للناس ويسعى في قضاء حوائجهم، وكان شديد التواضع بالفطرة، وزاده العلم تواضعًا، يكتب دائمًا في توقيعاته وعند اسمه «ننك اسلاف» - عار على الأسلاف - حسين أحمد غفر له، كان يتميز بعلمه الغزير وفهمه الدقيق، وأدبه الرفيع، وثباته على المبدأ ورحابة صدره، ونزاهة باطنه، واستغنائه عن المنافع المادية، وحبه للسنة النبوية وعنايته الخاصة بها، وعلو همته التي لا تعرف الفتور والكسل، واشتغاله الدائم، لا يتطرق إليه الملل.

كان وقورًا مهيبًا في غير عبوس أو فظاظة، طلق الوجه دائم البشر، ويلتزم الملابس الكثيفة من النسيج الوطني، وكان شديد البغض للإنجليز كشيخه شيخ الهند العلامة محمود حسن الديوبندي، وكان شديد الحب والبغض في الله، ويؤثر المصالح الدينية والشعبية على المصالح الشخصية، ضحى بكل غال ونفيس في تحرير البلاد. وبعد استقلال الوطن لم

يستفد من المنافع المادية شيئًا؛ بل الواقع أن حكومة الهند أرادت تكريمه بالوسامات الفخرية مثل «بدم بهوشن» فاعتذر عن قبوله، ورفضه قائلًا: إنه لاينسجم وطريقةَ أسلافي، وفي آخر عمره انقطع تمامًا إلى تدريس الحديث الشريف وتزكية النفوس، وكان يدرس في الجامعة الإسلامية دارالعلوم بديوبند صحيح البخاري وجامع الترمذي، وكان يقرأ هو بنفسه في غالب الأيام بلحن عربي، وصوت واضح قوي، ويفيض في الشرح والإلقاء، وتربى على يديه جيل كبير متحلٍّ بهذه الصفات، يشهد بربانيته وتبحره في علم الحديث في حياته وبعد مماته، كان كثير العبادة والرياضة والاجتهاد ويطيل القيام آخر الليل، ويشتغل بالذكر والمراقبة، ويكثر الدعاء والابتهال، وقد ينشد الأبيات الرقيقة المرققة في المناجاة والعبودية، وكان في آخر عمره غلبت عليه الحمية الدينية والغيرة على الشرع والسنة النبوية، فكان لا يتحمل تفريطًا فيها، وقد تعتريه الحدة في ذلك ويعلو صوته، ويشدد الإنكار على من خالف السنة أو استخف بشعائر الإسلام، وكان شديد الحب لأساتذته ومشايخه، شديد الغيرة فيهم. ولأجل نشاطاته التدريسية والسياسية والدعوية والتربويّة كان قليل التصنيف. له «الشهاب الثاقب» و«نقش حياة». وقد جمعت رسائله في ثلاثة مجلدات. وجمع بعض تلاميذه دروسه لسنن الترمذي وهي مطبوعة لم تتم. رحمه الله رحمةً واسعةً، وغفر له زلاته، وجعله في عباده الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا[19].

* * *

الهوامش:

(١) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى القاضي عياض – عياض بن موسى اليحصبي السبتي المغربي ٣٩١/٢.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٤٦٣/١٠، وحب الرسول من الإيمان لنور الدين العتر ٤-١١، والمحبة البيضاء لمحمد عبد المجيد المليباري ١٠-٢٥).

(٣) مدارج السالكين ٩-١١ ج٣.

(٤) ويكي پيـــڈيا، تاريخ جامعة دارالعلوم/ديوبند (بالأردية) ٨٢/٢-٨٤؛ نزهة الخواطر١٢٦/٨-١٣٢. ط: لكناؤ ١٩٩٣م.

(٥) معارف وحقائق ص ١٣٤.

(٦) إعلاء السنن للعلامة ظفر أحمد العثماني ٤٩٣/١، وط: إدارة القرآن، فتح القدير لابن الهمام ١٨٠/٣، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ٢٧٨/٦، إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني ٣٤٤/٢، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري رقم الحديث ٢٧٥٦.

(٧) رد المحتار شرح الدر المختار ٦٢٦/٢، ط سعيد.

(٨) علماء ديوبند وحبهم للرسول لأبي طلحة محمد إظهار الحسن محمود ص ١٥١، ط: مكتبة الحسن، لاهور.

(٩) المصدر السابق صفحة ١٥٢.

(١٠) زاد المعاد في هدْي خير العباد، الإمام شمس الدِّين بن أبي بكر، ابن قيِّم الجوزية، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م، ج١، (ص:٦٦).

(١١) المصدر السابق.

(١٢) علماء ديوبند وحبهم للرسول لأبي طلحة محمد إظهار الحسن محمود ص ١٥١.

(١٣) مجموعة خطبات أكابر ص ١٦٣؛ علماء ديوبند وحبهم للرسول لأبي طلحة محمد إظهار الحسن محمود ص ١٦١.

(١٤) المصدر السابق ص ١٥٩.

(١٥) المصدر السابق ص ١٦٢.

(١٦) أيضًا صفحة ١٦٣.

(١٧) أيضًا صفحة ١٦٤.

(١٨) تاريخ جامعة دارالعلوم/ديوبند (بالأردية) ٨٢/٢-٨٤؛ نزهة الخواطر ١٢٦/٨-١٣٢، ط: لكناؤ ١٩٩٣م.

سعيد بن المسيب والخليفة عبد الملك بن مروان

بقلم: الدكتور/ عبد الرحمن عميرة

كان سعيد بن المسيب[1] إماما ثقة، ومن أوسع التابعين علمًا وأعرفهم بالحلال والحرام، وأعلمهم بقضايا عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وأحكامه.

وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا، ومن أكثر الناس تأدبا مع حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

جاءه رجل – وهو مريض – فسأله عن حديث فجلس وحدثه.

فقال الرجل: وددت أنك لم تتعن..؟؟

فقال: كرهت أن أحدثك عن رسول الله، وأنا مضطجع.

ويقول مولاه برد: ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد في انتظار الصلاة.

وكان سعيد يقول عن الدنيا: هي قبيحة، وتكون إلى كل قبيح أميل، وأقبح منها من أخذها من غير حقها، ووضعها في غير موضعها من شرع الله.

وكان له مجلس علم – في مسجد الرسول - ﷺ- يتزاحم طلاب العلم للجلوس فيه.

ويقولون: إنه قريب من عهد النبوة، وكان سعيد يعرف طلابه على كثرتهم، ويحفظ أسماءهم.

وفي يوم من الأيام، وسعيد منهمك في درسه وقف على رأسه؛ أحد رجالات الحكم من بني أمية وهمس في أذنيه: إنني أريد محادثتك في أمر هام وأنا رسول الخليفة عبد الملك[2] بن مروان إليك، ولقد جئتك بعز الدنيا والآخرة.

ولكن الرجل الرباني أراد أن يصرف الرسول بهدوء قائلا: سأستمع لحديثك بعد أن أنهي الدرس مع طلاب العلم.

ولكن الرسول ألح في الحديث معه ليصرفه عن دروسه.

فما كان من سعيد إلا انصرف عنه إلى طلابه.

وما كاد سعيد ينتهي من درسه حتى جاءه الرسول قائلا: يا سعيد يا ابن المسيب، ألم أقل جئتك بعز الدنيا والآخرة..؟؟

قال سعيد: أما الدنيا فأنا في طاعة الله وذلك هو العز الذي لا عز بعده، وأما الآخرة فهي في علم الغيب، ولا يدري العبد أهو إلى الجنة أم إلى النار ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3] ثم تابع سعيد حديثه قائلا لرسول الخليفة تقول: جئتك بعز الآخرة فهل في مقدورك أن تدخلني الجنة.

قال الرسول: لا ليس ذلك في استطاعتي..؟؟

قال سعيد: هل في مقدور خليفتنا عبد الملك ابن مروان أن يحول بيني وبين الدخول إلى النار..؟

قال الرسول: لا.

عندها غضب الرسول، وقال: يا سعيد، خذ ما جئت به إليك.

قال سعيد: هاته.

قال الرسول: إن الخليفة رغب في مصاهرتك فأرسلني لأخطب ابنتك لابن الخليفة والذي جده خليفة.

وسيكون هو الخليفة بعد أبيه، أليس في ذلك عز ما بعده عز ..؟

فإن وافقت: كلنا لك الذهب والفضة وأتتك الدنيا راغمة، وفرشت لك الأرض من دمشق حتى المدينة بما تحب وترضى.

وإن كانت الثانية، فأنت أعلم الناس بسياط بني أمية..؟؟

قال سعيد: أبسط الأمور أن أستشير ابنتي في ذلك كما أمرنا بذلك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حيث قال:

«لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن قالوا: يا رسول الله: وكيف إذنها..؟ قال: أن تسكت»(٤).

قال الرسول: يا سعيد، سنمهلك أيامًا معدودة..؟؟

وانصرف الرسول ليخبر الخليفة بما دار بينه وبين سعيد بن المسيب..؟

بعدها جلس سعيد مع نفسه – إن ابنته قطعة منه – ومحال أن تكون لابن الخليفة: الخليفة الذي بغى وطغى وآثر الدنيا على الآخرة.

ومن يفعل ذلك فلا شك أن يكون طعمة للنار يوم القيامة!!

وهو أرأف بابنته أن تكون حطبا لجهنم، مهما تحمل في سبيل ذلك من عذاب، إن بني أمية يهددون بالسياط وبما هو أنكى من السياط ولكن سياطهم لن تنزك على جسد حي؛ لأنه فرغ من دنياهم فهي إذن لا تؤلم. استراح سعيد إلى هذه النتيجة. ولكن كيف..؟ لا كيف لأن التدبير لله تعالى، ومن لا يدبر وتوكل على خالقه دبر له.

وفي اليوم التالي جلس سعيد في مجلسه الذي اعتاد أن يجلس فيه كل يوم لإلقاء درسه على طلاب العلم؛ ولكن عينه افتقدت أحد طلابه النجباء وهو كثير بن أبي وداعة.

أين كثير بن أبي وداعة؟ إن من عادته ألا يتغيب.. هل أصابه مكروه؟؟ أم ماذا حل به؟؟ وجاءه الجواب من جاره ابن مندوه الخزاعي..؟

قال: سيدي الشيخ، لقد ماتت منذ أيام زوجه فهو حزين عليها، وقابع في بيته لا يفارقه..؟؟

واستدل سعيد على بيت كثير..؟؟

وما كاد ينتهي من درسه حتى انطلق إلى هناك.

انطلق سعيد إلى بيت الطالب الفقير الورع الذي لا يجد قوت يومه إلا بصعوبة..؟؟ وطرق الباب، وخرج الطالب .. وأوشك أن يتوقف قلبه

من هول المفاجأة: سعيد بن المسيب مؤدب الخلفاء والأمراء، ومرشدهم إلى الطريق الحق: طريق الله في بيت ابن أبي وداعة.

وبعد أن واساه الشيخ وقدم له العزاء.

قال سعيد: يا ابن أبي وداعة: أترغب في الزواج..؟

قال: ومن يزوجني يا شيخي وأنا لا أملك حمراء ولا صفراء من هذه الدنيا.

قال سعيد: سؤال محدد ألك رغبة في الزواج..؟

قال الطالب: وهل يمكن أن يعيش الرجل بغير زوجة..؟ إلا إذا اضطرته ظروف الحياة وحالت بينه وبين ما أمر الله تعالى به بقوله ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(٥).

ثم ماذا..؟؟ ذهب سعيد إلى بيته والتقى بابنته – ابنته التي حباها الله أخلاق المؤمنات العابدات، ومنحها جمال الحور العين – نعم الحور العين اللاتي وعد الله عباده المؤمنين بهم في الجنة.

قال سعيد: يا ابنتي، لقد اخترت لك زوجًا صالحًا تقيًّا عارفًا بحدود الله متأدبًا في عشرة النساء بما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «النساء ناقصات عقل ودين يغلبن كريما ولا يغلبهن إلا لئيم، فأحببت أن أكون كريما مغلوبا، على أن أكون لئيما غالبًا».

فهل تقبلينه زوجا..؟

قالت الفتاة: ما تراه خيرًا يا والدي فهو خير.

قال الوالد الرحيم: إذن يا ابنتي هيئي من شأنك حتى نذهب إليه..؟؟

وطرق باب ابن أبي وداعة مرة أخرى، وقال سعيد: هذه يا بني، زوجك، اخرج على سطح منزلك وألْقِ ببعض الحصيات على بيوت الجيران حتى يعلموا أنك ستعرس في هذه الليلة..؟؟

واجتمع جيران ابن أبي وداعة نساؤهم ورجالهم وأطفالهم وفتيانهم، ومعهم الدفوف وما يحتاجه إعلام الزواج – وزفت العروس إلى زوجها.

ولم ينس سعيد أن يدس في يد صهره قبل انصرافه كيسًا مملوءًا بالدنانير.. قائلا له: أصلح به شأنك وشأن عروسك.

واستراح سعيد: وحمد الله كثيرًا لتوفيق الله له في إبعاد ابنته عن زواجها من ابن الخليفة الذي لا يخاف الله تعالى.

ضرب سعيد بن المسيب وسجنه..؟؟

أراد عبد الملك بن مروان: أن يرد على سعيد بن المسيب فأصدر أمره بتعيين هشام بن إسماعيل – أكثر الولاة ضراوة وقسوة – واليا على المدينة.

ثم طلب منه أن يأخذ البيعة لابنه الوليد ليكون خليفة من بعده، فدعا الناس إلى البيعة، فبايع فأبى.

وقال: حتى أنظر..؟؟

فضربه هشام ستين سوطا وكروا به داخل المدينة..

فقال: أين تكرون بي..؟

قالوا: إلى السجن. وتم وضعه فيه.

ثم أرسل الوالي إليه في داخل سجنه أبا بكر بن الحارث. فجعل يكلم سعيدا ويقول له: إنك خالفت أمر الخليفة. وألبت العامة على الوالي.

قال سعيد: يا أبا بكر اتق صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وخَفْهُ وآثره على من سواه من خلقه..؟؟

قال: فجعل أبوبكر يحاول أن يجعله مطيعا للخليفة، سامعًا لأمر الوالي.

فقال سعيد: يا أبا بكر: إنك والله أعمى البصر أعمى القلب..؟؟

وخرج أبو بكر وذهب إلى هشام في مجلس الحكم..؟؟

قال هشام: إيه هل لان سعيد بن المسيب منذ ضربناه..؟؟

قال أبو بكر: والله ما كان أشد لسانا منه منذ فعلت به ما فعلت..؟؟ فاكفف عن الرجل..؟؟

وجاءه كتاب من عبد الملك بن مروان يلومه في ضربه سعيد بن المسيب، ويأمره بإخراجه من السجن..؟؟

وخرج سعيد من السجن، والتف الناس حوله، وطلبوا منه أن يدعو على بني أمية..؟؟

فقال سعيد: (اللّهم أعز دينك وأظهر أولياءك، وأخز أعداءك. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين).

وكان لسعيد في بيت المال بضعة وثلاثون ألفا عطاءه، فكان يُدعى لأخذها فيأبى ويقول: لا حاجة لي فيها حتى يحكم الله بيني وبين بني مروان..؟؟

ثم ماذا..؟

حج عبد الملك بن مروان، فلما قدم المدينة وقف على باب المسجد، وأرسل إلى سعيد بن المسيب رجلا يدعوه ولا يغضبه..؟؟

قال: فأتاه الرسول وقال: أمير المؤمنين واقف بالباب يريد أن يكلمك.

قال سعيد: ما لأمير المؤمنين إليَّ حاجة، وما لي إليه حاجة وإن حاجته إليَّ لغير مقضية..؟

قال: فرجع الرسول إليه فأخبره.

فقال عبد الملك بن مروان: ارجع إليه فقل: إنما أريد أن أكلمك.

قال: فرجع إليه فقال له: أجب أمير المؤمنين.

فقال له سعيد ما قال له أولا.

فقال له الرسول: لولا أنه قال لي أمير المؤمنين لا تحركه، وما ذهبت إليه إلا برأسك، يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول مثل هذه المقالة..؟

قال سعيد: إن كان أمير المؤمنين يريد أن يصنع لي خيرًا فهو لك، وإن كان يريد غير ذلك فلا أقوم من مقامي هذا حتى يقضي الله ما هو قاض.

قال: فأتاه فأخبره.

فقال عبد الملك بن مروان: رحم الله أبا محمد أبى إلا أن يكون صلبا معي..؟

ثم ماذا..؟

استخلف الوليد[٦] بن عبد الملك، وجاء

المدينة فدخل المسجد فرأى شيخا قد اجتمع الناس عليه.

فقال: من هذا..؟؟

فقالوا: سعيد بن المسيب..؟؟

فلما جلس أرسل إليه. فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين.؟؟

فقال سعيد: لعلك أخطأت باسمي، أو لعله أرسلك إلى غيري.

قال: فأتاه الرسول، فغضب وهمَّ به.

قال: وفي الناس يومئذ بقية، فأقبل عليه جلساؤه فقالوا: يا أمير المؤنين فقيه أهل المدينة، وشيخ قريش، وصديق أبيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه..؟؟

قال: فما زالوا به حتى ابتعد عنه.

وكان سعيد إذا سأل عن هؤلاء القوم قال: أقول فيهم ما قولني ربي: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٧).

وتساءل المرء: أين أمثال هؤلاء العلماء الذين تربوا في مدرسة القرآن..؟

هل عقمت الأمة فلم تخرج أمثال هؤلاء الرجال..؟

إن الأمة الإسلامية في عصرنا الراهن أحوج ما تكون لأمثال هؤلاء الرجال.

لو وجد هؤلاء الرجال لأعادوا للأمة مجدها وهدوا البشرية كلها – كما فعل أجدادهم – إلى الطريق السليم، طريق الإيمان والحق.

فمتى يا رب، يوجد أمثال هؤلاء العمالقة..؟

العمالقة الذين مدنوا الدنيا وهذبوا العالم وقرروا الحق للناس، كل الناس في أركان الأرض الأربعة..!

فمتى نراهم مقبلين..؟

متى يا رب..؟!

هذا وبالله التوفيق.

* * *

الهوامش:

(١) هو سعيد بن المسيب أبو محمد، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً توفي بالمدينة عام ٩٤هـ.

(٢) عبد الملك بن مروان بن الحكم أبو الوليد من دهاة الخلفاء ولد عام ٢٦هـ ونشأ في المدينة، فقيهًا واسع العلم متعبدًا ناسكًا انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه عام ٦٥هـ فضبط أمورها وأظهر التقوى، اجتمعت عليه كلمة المسلمين. أول من سلك الدنانير في الإسلام. توفي في دمشق عام ٨٦هـ. [راجع ابن الأثير ٤:١٩٨ والطبري ٨:٥٦].

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٩٩؟

(٤) الحديث رواه البخاري في النكاح ٤١ ومسلم في النكاح ٦٤ والترمذي في النكاح ١٨.

(٥) سورة الروم آية رقم ٢١.

(٦) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان من ملوك الدولة الأموية في الشام ولد سنة ٨٦هـ وكان من قواده موسى بن نصير، وطارق بن زياد وامتدت الدولة الإسلامية في عهده إلى الهند والصين وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام، ووسع المسجد المكي والحرم النبوي وجده بناء المسجد الأقصى في القدس توفي عام ٩٦هـ ودفن بدمشق. [راجع ابن الأثير ٥:٣ والطبري ٨:٩٧].

(٧) سورة الحشر آية رقم ١٠.

اتخاذ اللباس وستر العورات.. فضيلة إنسانية ودينية

بقلم: الدكتور/ حسن عبد الغني أبو غدة

الإسلام نبع دافق بكل فضيلة ومكرمة، وإن ما تضمنه من قيم رفيعة وعادات حسنة وسلوك قويم، إنما مبعثه إلى ذلك المعين الفياض الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه، من أجل سعادة البشر وكرامتهم.

ومما اشتمل عليه الإسلام – شأنه في ذلك شأن الديانات السماوية الأخرى – اتخاذ اللباس وستر العورة، وهو موضوع يرتبط ارتباطا وثيقًا بوجود الجنس البشري.

اتخاذ اللباس مؤشر فطري:

منذ أن خلق الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام، وأسكنهما الجنة وجه الخطاب إلى آدم – لكونه القائم على الأسرة – فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (طه:١١٨) ولما وسوس إبليس لهما، وخالفا وصية الله وأكلا من الشجرة انكشفت سوآتهما وانزاحت عنهما ثيابهما، فجعلا يضعان عليهما من ورق الشجر، طلبًا للستر، واستمساكا بالفطرة الحية المتأصلة فيهما، قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ (الأعراف:٢٢). وهكذا يتضح أن انكشاف العورة أمر مذموم في الفطرة البشرية السوية، ومرفوض في الطبع السليم، ومن هنا قالوا: العورة لغة: مأخوذة من العَوَر، وهو النقص المستقبح وسميت بذلك، لاستقباح ظهورها في الطبع والذوق[1] أما في الشرع: فالعورة كل ما حرم الله تعالى كشفه من جسم الإنسان، أمام من لايحل له رؤيته.

العري تهديم للفضيلة وعودة إلى الجاهلية:

حارب الإسلام عادة التعري أمام الآخرين، التي كانت منتشرة في مجتمع الجاهلية، وبين مافيها من مفاسد أخلاقية واجتماعية، فضلا عن خرقها للذوق السليم، وخروجها على الفضيلة والمروءة، وإن الحالة التي كانت عليها الجاهلية من التهاون في اتخاذ اللباس وستر الجسم، لاتختلف كثيرا عما هو مشاهد اليوم في حياة كثير من الأمم والشعوب، الذين يزعمون بلوغهم شأوا بعيدًا في سلم الرقي والمدنية، فتلك نوادي العراة في بلاد أوروبا وأمريكا وغيرها شاهد حي على ما نقول، وهذه ملابس النساء والرجال على شواطئ البحار، وفي الأسواق والطرقات والسهرات والحفلات، تكشف عما

توجب ستره الشرائع والديانات والفطرة الإنسانية.

وما أشبه هذه الوقائع والأحوال بما كانت عليه عادات الجاهلية، حين كان رجال من العرب يتعرى بعضهم أمام بعض، حين الاغتسال وقضاء الحاجة، ولا يتحرجون من النظر إلى عورات بعضهم؛ لأن فكرة الاحتشام والحياء سلخت من قاموسهم الاجتماعي، ولهذا يقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «والحياء شعبة من الإيمان» متفق عليه.

بل تروي كتب التفسير والسيرة والتاريخ أن جماعات من الرجال والنساء كانوا يؤدون مناسكهم حول الكعبة وهم عراة، لأنهم لايحبون أن يعبدوا الله تعالى في ثيابهم التي عصوه فيها بحسب زعمهم. كما كانت النساء يلبسن في الطرقات والأسواق ملابس غير محتشمة، تبدو منها الصدور والأذرع وغيرها، كما هو منتشر في كثير من البلاد التي يقال: إنها بلغت مرحلة النضج الإنساني وحضارة القرن العشرين..!! وفي نحو هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ (النور:٣١).

ستر العورة قيمة دينية وفضيلة خلقية وأمان اجتماعي:

أولى الإسلام موضوع اللباس وستر العورة اهتمامه البالغ، وعنايته المؤكدة، وعد ذلك من أوليات التعاليم الدينية الدالة على الرقي في الذوق الاجتماعي المتوافق مع الفطرة الإنسانية ومكارم الأخلاق قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ﴾ (الأعراف:٢٦).

والملفت للنظر في هذه الآية مخاطبة القرآن للناس بلفظ الآدمية، التي تميزهم عن الحيوانات من حيث ستر الأجسام واتخاذ الملابس والتزين بها.

وقد شددت السنة النبوية على اتخاذ اللباس، ونهت عن كشف العورات، أو النظر إليها، يقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لاينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولاتنظر المرأة إلى عورة المرأة» رواه مسلم. كما حث الإسلام على ستر الجسم وعدم كشف العورة منه في محيط الأسرة أمام الإخوة والأبناء ونحوهم، ممن قد يتساهل معهم في هذا الشأن، روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا، ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك» قال بهز: قلت الرجل يكون خاليًا؟ أي منفردًا وحده – قال: «الله أحق أن يستحيا منه» رواه ابن ماجه.

وفي حرص الإسلام على ستر العورة واتخاذ الملابس دعوة للناس إلى التمسك بخلق الحياء، وهو قيمة إنسانية واجتماعية تدل على سلامة المزاج ووفرة المروءة، وتقدير الناس ورعاية مشاعرهم وإكرامهم بالظهور أمامهم في صورة حسنة، وهيئة كريمة تغاير ظهور المخلوقات الأخرى مكشوفة بعضها أمام بعض، فضلا عما في هذا الحرص الإسلامي، من حماية للأخلاق وصيانة للأعراض وكف للمفاسد والشهوات المذمومة، ومنع للجرائم

والآثام، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «الإثم حواز القلوب – أي يصارع القلوب ويغلبها – وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع»رواه الطبراني.

النظرة سهم مسموم.. وفي تركها نجاح وفلاح:

لقد بشر الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذين يغضون أبصارهم ويحفظونها عما لايحل لهم، بأجزل الثواب وأطيب العطاء وأكرم التعويض.

إن غض البصر تكليف يشمل الجنسين: الرجل والمرأة على حد سواء؛ لأن طهارة القلب هي الغاية من غض البصر، وهي لاتختلف في الرجال والنساء، يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ (النور:٣٠) ثم يقول بعيد ذلك مباشرة ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾(النور:٣١). وقد حددت الآيات الهدف من وراء ذلك بأنه تحقيق مزيد من طهارة النفوس وصفاء القلوب وصيانة الأعراض ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ (النور:٣٠).

ويتحقق غض البصر بصرفه عن النظر إلى الممنوع المحرم، وتوجيه القلب إلى مراقبة الله تعالى واستحضار عظمته، وإشغال النفس والذهن بغير المنظور إليه مما يعود على المرء بالنفع والخير والصلاح والصفاء.

حدود مالايحل النظر إليه:

تكلم العلماء في تحديد العورة ومايحرم النظر إليه فذكروا: أنه لا ينبغي للرجل أن يكشف ما بين السرة والركبة أمام من لايحل له النظر إليه[٣]. وكذا لايجوز للمرأة أن تكشف عن جسمها أمام الرجال من غير المحارم. واتفقوا على وجوب ستر المرأة، وجهها مخافة الشهوة والفتنة[٤].

أما بالنسبة إلى نظر الرجل إلى محارمه كأمه وأخته وابنته، فيحل له النظر إلى الأعضاء والمواطن التي تظهرها المرأة عادة حين الخدمة في البيت وتدبير شؤون المنزل، من مثل الرأس وأعلى الصدر واليدين وأسفل الركبتين[٥] وينبغي صرف النظر عما سوى ذلك توقيرًا للمحارم وصيانة لحدود الله.

هذا ومن المقرر في الإسلام حرمة النظر إلى المرأة المستورة بثيابها الشرعية، إذا كان الباعث على هذا النظر التشهي والتلذذ، وذلك منعًا للفساد وصيانة للحرمات ودرءًا للشهوات والفتن، ورعاية لحق الله تعالى[٦]. والأصل في مجمل ماتقدم حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي يقول فيه: إن الفضل بن عباس رضي الله عنهما – كان رديف النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – أي راكبا خلفه على الدابة فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر – أي الطرف الذي ليس فيه وجه المرأة – فقال العباس: يارسول الله لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: «رأيت شابًّا وشابة، فلم آمن الشيطان عليهما» رواه الشيخان وأحمد.

عورة الأطفال الصغار:

للعلماء أقوال متعددة في عورة الصغار وما يحل ومالا يحل النظر إليه منهم، ومجمل كلام بعض الفقهاء: أنه لا ينبغي النظر إلى القبل والدبر في الصغير والصغيرة قبل سن التمييز، وذلك مراعاة للحرمة والكرامة الإنسانية، أما غير هذين المكانين فيتسامح في النظر إليه إلا إذا كان جسم الصغير أو الصغيرة يثير الانتباه، لامتلائه وحسنه، فيمنع من النظر(٧) ويروى في هذا أن محمد بن عياض رضي الله عنه قال: «رفعت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلي خرقة، وأنا طفل صغير، قد كشفت عورتي فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: غطوا عورته فإن حرمة عورة الصغير كحرمة عورة الكبير» رواه الحاكم.

وقد استثنى العلماء الأم ومن في حكمها ممن يقوم على حضانة الطفل ورعايته من منع النظر إلى قبله ودبره وذلك لضرورة التنظيف والإشراف على شؤون الطفل(٨).

توجيه الأبناء إلى ستر العورة:

من أعظم أمنيات المسلم أن يهبه الله ذرية تقر بها عينه، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (الفرقان:٧٤). ومن أسباب الرضا عن الذرية تمسكها بتعاليم الدين وأحكام الإسلام ومن هنا فإن من مسؤولية الآباء والأمهات أن يوجهوا أبناءهم من البنين والبنات مع بوادر سن التمييز عندهم إلى الالتزام بالستر والحشمة وستر العورات، وعدم إظهارها أمام الآخرين، وذلك تعويدًا لهم على آداب الإسلام، وحثًّا لهم على مكارم الأخلاق، وصيانة لهم عن التكشف، بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول في رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها...» متفق عليه.

وهكذا يتضح مما سبق مدى انسجام تعاليم الإسلام مع الفطرة البشرية والسلوك القويم في موضوع اتخاذ اللباس وستر العورات، كما يتضح حرص الإسلام على نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة، من خلال حثه الأفراد كبارًا وصغارًا على مكارم الأخلاق ودعوتهم إلى الالتزام باللباس المحتشم، الذي ميز الله تعالى به الإنسان عن المخلوقات الأخرى.

* * *

الهوامش:

(١) انظر مادة «عور» في القاموس المحيط والمعجم الوسيط.
(٢) المغني لابن قدامة ٢٨٤/٢.
(٣) المرجع السابق ٣٢٨/٢ وأسنى المطالب ١٠٩/٣.
(٤) انظر تفسير أضواء البيان للشنقيطي ١٩٥/٦.
(٥) انظر تفسير التحرير لابن عاشور ٢٠٧/١٨.
(٦) انظر تفسير القرطبي ٢٢٧/١٢ وأسنى المطالب للأنصاري ١١٠/٣.
(٧) انظر أسنى المطالب ١١٠/٣.

* * *

قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام

بقلم: الشيخ/ عبد الفتاح أبو غدة

خصائص القضاء في الإسلام ومزاياه:

القضاء في الإسلام يقوم على أسس قويمة متينة، ويتميز بخصائص فريدة بارزة، ونجمل عماد تلك الخصائص والمزايا فيما يلي:

١- الإيمان بالله تعالى:

الذي يجعل من القاضي رقيبا على نفسه، في حكمه على القريب والبعيد - والعدو والصديق، فينتفي من حكمه الجور والتحيز والمداهنة، ويسلم له العدل والمساواة والنصفة. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾. وهكذا يتضح لنا كيف أن الإيمان بالله، واستشعار المسؤولية بين يديه ينبعث عنه العدل والاتصاف. وهذا الأساس - الإيمان بالله - يفتقده كل قانون وضعي، مهما تحرى به العدل والأحكام. ومن خلال هذه الخاصة أيضا يتبين لنا متانة القضاء في الإسلام، وأنه مقام منيع محصن من تدخل ذوي النفوذ والجاه والقوة فيه، لأنه ينبعث من عقيدة الإيمان لا من تولية السلطان.

٢- الله سبحانه هو الحاكم وحده:

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾. وقال أيضًا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾.

فلا حاكمية إلا لله وحده، والرسول ﷺ مبين لحكم الله، حاكم بقول الله وشرعه، كذلك الحكام بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هم فيما يقضون به نُواب عن الله، ومنفذون لأحكامه لا غير. قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

٣- الشريعة التي يحتكم إليها هذا القضاء:

شريعة عادلة كاملة محكمة، كيف لا وهي شريعة خالق الخلق وأحكم الحاكمين، وقد أكملها للناس وأنزلها خاتمة الشرائع السماوية وأتم بها نعمته وفضله على جميع العباد، وجمع لهم فيها خير الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾. وقد كفلت هذه الشريعة بكمالها وتمامها للناس

كل حاجاتهم، وأغنتهم عن كل تشريع آخر، فأي حكم بخلافها هو خروج عن العدل، ووقوع في الحيف الذي لا تسلم منه الأحكام والقوانين التي يسنها البشر لأنفسهم، فيشملها الضعف والهوى والقصور الإنساني، وطبيعي أن يتأتى عن ذلك الظلم والاضطراب والفساد.

أين شرع الناس من شرع الذي
خلق الدنيا وسوّى العالمين؟

٤- العدل:

لقد تميز قضاء الإسلام فيما تميز به عن غيره بإقامته العدل بين الناس، دون تفريق بين أبيض وأسود، وملك وسوقة، وصغير وكبير، وغني وفقير، وشريف وحقير، فالناس في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح، كلكم لآدم وآدم من تراب.

وقد فرض الإسلام العدل في الحكم مع العدو والصديق، والبعيد والقريب. وآيات القرآن الكريم الناطقة بذلك كثيرة. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

٥- المساواة:

ونريد بها إلغاء ما تعارف عليه الناس من التمييز بين الشريف والوضيع في الحكم، بسبب الشرف والضعة، دون نظر إلى حق المحق وباطل المبطل منهما.

فالإسلام أقام التسوية بين أصناف الناس جميعا أمام الحق والقضاء، مهما تباينت منازلهم وألوانهم وأجناسهم وبلدانهم وألسنتهم وأديانهم.

وعلى هذا الأساس قام القضاء في الإسلام، وبه تميز، فكان غرة في جبين القضاء الإنساني أبد الدهر.

٦- الشمول لأنواع الحقوق وشؤون الحياة:

القضاء في الإسلام قائم على شريعة الإسلام بطبيعة الحال، ونحن نعلم أن شريعة الإسلام كاملة، ومن كمالها تناولها شؤون الحياة كافة، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

والقضاء الإسلامي يتناول - فيما يتناوله - شؤون الأموال والأعراض والدماء وسائر الحقوق، وهو يشمل نظام البيوت، ونظام الحكم، والتعامل بالأموال، والعقود مهما تنوعت، وشؤون الحرب والسلم.. والتحكيم وغيرها، فكل ما يتنازع الناس فيه من شؤون الدنيا داخل في قضاء الإسلام.

٧- وحدة القضاء:

ومما تقدم يتبين لنا مزية هامة لها أثرها الخطير في النفوس والأفكار، وهي: وحدة القضاء الإسلامي، فالإنسان في ظل قضاء الإسلام ليس هو أمام قضاء متعدد النزعات، مختلف الجهات، متباين المصادر، تتضارب مصالح الناس عنده، وتذهب حقوقهم بسبب اختلاف قواعده وحلوله للمشكلات والوقائع والخلافات؛ بل ليس أمام

ذلـك الإنـسان إلا قـضاء واحـد شـامل متكامـل متجانس بفروعه المتعددة واختصاصاته المتنوعة.

٨- اقتصاره على مصالح الدنيا دون تدخله في الأمور العبادية:

والمـسائل الاجتهاديـة الخلافيـة، والوقـائع الأخروية، فإن الشمول الذي تميز به إنما هو من الأمور المتنازع فيها من مصالح الدنيا، أما ما عداها من الأمور التي ذكرناها فإنها لا تدخل في نطاق القضاء وحكم الحاكم أصلا، كما لا تدخل فيه خوالج النفوس ونيات الناس ما لم تتمثل في أعمال.

قال الإمام القرافي في كتابه (الإحكام في تمييز الفتاوى والأحكام وتصرفات القاضي والإمام) ص ٢٣: والحكم إنما يكون فيما يقع فيه التنازع لمصالح الدنيا، أما مسائل الاجتهادات في العبادات ونحوها فلا يدخلها حكم أصلا.

فليس لحاكم أن يحكم بأن هذه الصلاة صحيحة أو باطلة، ولا أن هذا الماء دون القلتين فيكون نجسا، فيحرم بعد ذلك استعماله؛ بل ما يقال في ذلك إنما هو فتيا، إن كانت مذهب السامع عمل بها، وإلا فله تركها والعمل بمذهبه. ولا يلزم شيء من أحكام العبادات ونحوها من لا يعتقده؛ بل يتبع مذهبه في نفسه، ولا يلزمه قول ذلك القائل بحكم الحاكم به.

٩- اعتماده على الوازع الإيماني القلبي:

ولئن كان من حكمة القضاء في الإسلام ومزاياه أن يتولى الفصل في القضايا المتعلقة بمعاملات الناس ومصالحهم الدنيوية، ودون قضايا العبادات والأخرويات كما ذكرنا، فإن من مزاياه أيضا اعتماده على الوازع الإيماني القلبي في نفوس المتخاصمين حتى لو ضلل القضاء، فإنه يبقى الحرام حراما ولو حكم القاضي بحله اعتمادا منه على البينة الواضحة.

وهذا الوازع الإيماني المتولد عن عقيدة الإسلام، يعتلج في قلب الخصم حتى يجعله يتورع عن أكل أموال الناس بالباطل، ولو سانده القضاء في الظاهر، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجلين من الأنصار، اختصما إليه في مواريث بينهما قد درست معالمها، ليس عندهما بينة إلا دعواهما، قال لهما: (إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولم ينزل علي فيه شيء، وإني أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا ظلما بقوله فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار، يطوق بها من سبع أرضين يأتي بها سطاما في عنقه يوم القيامة، فليأخذها أو ليدعها. فبكى الرجلان جميعا لما سمعا ذلك، وقال كل واحد منهما: يا رسول الله حقي هذا الذي أطلب لأخي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أما إذا قلتما هذا فاذهبا واقتسما، ثم توخيا الحق، فاجتهدا في قسم الأرض شطرين، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبوداود

والنسائي والترمذي وابن ماجه، وجمع بين رواياتهم.

١٠- استقلاله ونزاهته:

القضاء في الإسلام سلطة عليا ذات كيان رفيع، مستقلة في ذاتها، بمعنى أنه لا سلطان عليها لأمير أو خطير في أن يتدخل في أحكامها، ذلك أن القاضي نائب عن الله عز وجل، وهو مسؤول بين يديه، فهو – وإن قامت الحكومة بتوليته منصب القضاء – هو بواقع الأمر نائب عن الله، لا يحكم إلا بما أنزل الله، وأرشد إليه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يكون أحد من رجال الدولة حتى أكبر كبير فيها في منجاة من أن يقضي عليه إذا اقتضى العدل ذلك، شأنه كشأن عامة الرعية أمام القضاء.

قال الإمام الكاساني الفقيه الحنفي في كتابه العظيم (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) ٧:١٦ «إن القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقه؛ بل بولاية المسلمين وفي حقوقهم، وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم» فلذا إذا مات الخليفة أو خلع لا تنعزل قضاته. وقد صح أن نصرانيًّا ادعى على هارون الرشيد دعوى، فسمعها القاضي أبو يوسف، مع أنه مولى من قبل الرشيد، فالقاضي يقبل الدعوى على السلطان أوله لإحقاق الحق.

وسنرى فيما بعد كيف قضى شريح على أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه، وكان خصمه يهوديًّا، كما قضى أبو يوسف على الخليفة هارون الرشيد، وكان خصمه نصرانيا، وكما قضى محمد بن عمران الطلحي قاضي أبي جعفر المنصور عليه في خصومته مع الحمالين الجمالين، إنه الإسلام.

ومن أدل الوقائع التي تعبر عن هذا المعنى العظيم، الذي تميز به قضاء الإسلام: ما وقع للسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، فقد جاء إليه رجل من أصحابه وأهل الدالة عليه، يستعديه على رجل غشه، فقال له صلاح الدين: ما عسى أن أصنع لك؟ وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته فالحق يقضي لك أو عليك[1].

ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذا لحكم الشرع وتابعا له، كالشحنة وهو صاحب الشرطة، أي رئيسها وأن القضاة مستقلون بالحكم، لا سلطان لأحد عليهم.

فهذه الواقعة، والوقائع التي أشرنا إليها، وغيرها كثير، كلها تمثل لنا استقلال القضاء ونزاهته في هذا الدين الحنيف، وذلك هو الطابع العام لقضاء الإسلام.

١١- عمومه وعالميته:

مما هو معلوم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل للناس كافة، وأن هذه الشريعة مخاطب بها كل بني آدم، وأن كل إنسان منهم مدعو للدخول فيها والانضواء تحت ظلها. وقد قرر الإسلام الحنيف أن الناس جميعا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم

(١) ذكره الشيخ رشيد رضا في «الوحي المحمدي»من طبعته الثالثة ص٢٤٢.

وديارهم.. نوع واحد، ومن أصل واحد: ﴿إِنَّـــا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِـــلَ﴾ «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح».

ولدى استقراء أحكام هذه الشريعة الإسلامية الغراء – التي هي مرجع القضاء – نجدها لا تفرق بين مشرقي ومغربي، وصيني وعربي، وأبيض وزنجي.. وهذا كله يدلنا على عالمية هذا القضاء الإسلامي، وعلى عمومه للبشر قاطبة. فهو القضاء الوحيد الذي يمكن أن يحتكم إليه كل فرد من ألوان البشر، لاطمئنانه أنه أمام قاض عالمي النظرة والتصور، أمام قضاء سنّ أحكامه الباري سبحانه وتعالى لعباده كافة. وهو القائل في كتابه الكريم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾. والقائل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾. ولنقايس بين هذا في الإسلام، وبين ما عليه الكثير من الأمم التي تدعي الحضارة والرقي اليوم، مثل أمريكا وجنوب أفريقيا، وما يقوم بهما من المآسي المرة من جراء التفرقة بين لون ولون، وعنصر وعنصر، مما تتجدد أنباؤه على أسماع كل يوم.

١٢ – كماله وخلوده:

لقد تبدى لنا من كل ما سبق أن هذا القضاء متكامل الوجود. مستجمع لشرائط إحقاق الحق مستوف – على الوجه الأمثل – لكل ما يتعلق بالحاكم والمحكوم وشريعة التحاكم وأصول التقاضي وسائر ما يتصل بالقضاء.

وجدير بمثل هذا القضاء الكامل أن يكون بلسما للناس في كل عصر وجيل، يصلح بينهم، ويقوم أودهم، ويرد شاردهم إلى جادة الحق والصراط المستقيم، فهو خالد خلود شريعة الإسلام، باق ما بقيت السماوات والأرض.

هذا ما رأيت تعداده من الخصائص والمزايا للقضاء الإسلامي، وهناك أمام الباحث الدارس أمور يمكن أن تضاف إليها أيضا، فتكون من مزاياه مثل كونه مجانيا، لا يتوقف على رسوم وأجور تقدم من أحد الخصمين، ليقبل النظر في الدعوى. وواضح أن هذه المزية تمكن الفقير وغيره من الوصول إلى إنصافه وإقامة العدل بينه وبين ظالمه، وحري بالقضاء العادل أن لا يكون بينه وبين الضعفاء من أصحاب الحقوق معوق ولا حجاب.

ومما يذكر أيضا في هذا المجال ثراء (الفقه الإسلامي) الذي هوالمرجع العام للقضاء، ذلك الفقه الذي لا نظير له عند أمة من الأمم. كيف لا وقد نما واتسع على مر العصور خلال أربعة عشر قرنا، وامتد على آفاق واسعة من الكرة الأرضية، وقد بذلت فيه قرائح العقول وكرائم الجهود من شتى الأجناس والشعوب وواجه بالحلول الواقعية الحاسمة مشكلات بني الإنسان على اختلافها وتنوعها وتجددها، ومن تلك المزايا أن لهذا الفقه

المتجدد قواعد وأصولا منهجية، تسعف القاضي وتسدده في التطبيق والاستنباط.

تلك هي أهم خصائص قضاء الإسلام ومزاياه، فلا عجب أن نشهد في تاريخه النماذج الرائعة الكثيرة تتجدد وتتكرر على مر العصور، وخاصة إذا قابلنا بينه وبين قضاء الأمم الأخرى في القديم والحديث. وذلك الفضل كله ناتج عن الأصل الأول لهذا القضاء، وهو صدوره عن الشريعة المنزلة من عند الله تعالى، على نبيه وأكمل خلقه سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المبعوث رحمة للعالمين بهذا الإسلام الحنيف.

والآن نسير مع هذا القضاء العظيم لنشهد في لمحات نشأته وأطواره.

القضاء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

تمهيد:

في هذا العهد النبوي الكريم نشهد مولد القضاء الإسلامي، ورفع قواعده، وإقامة أركانه: من شرع حكيم يحكم به، وتصور سليم للكون والإنسان والحياة يدعم هذا القضاء، وتحديد للمسؤولية، وجعلها فردية، وإقامة لرقابة الله في قلوب الناس حاكمين ومحكومين، مدعين أو مدعى عليهم، إلى غير ذلك مما يحقق العدل والنصفة والإخاء بين العباد.

مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم:

لما بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة، قام يدعو الناس إلى دين الله تعالى والإيمان به سبحانه، وتوحيده بالعبادة والطاعة، ونبذ الشرك والأصنام، وتنزيه العقل عن لوثات الوثنية والضلالات. ثم أذن له بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها، وكثر الداخلون في دين الله، وانتشرت دعوة الإسلام، وتزايد نموها وقبولها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا:

وكما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مأمورا بالدعوة إلى الله وتبليغ الأحكام: كان مأمورا أيضا بالحكم والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من اختلاف وتنازع. وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾. وقوله سبحانه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

فقام رسول الله ﷺ بأمر ربه، يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويبين لهم ما يحل وما يحرم، ويفصل في خصوماتهم إلى جانب قيامه بتبليغ الشرائع والأحكام، فكان ﷺ: الإمام والقاضي والمفتي والرسول المبلغ عن الله تعالى، ورفع إليه كثير من الأمور المتنازع فيها، فقضى فيها بما أنزل الله إليه في كتابه، وبما هداه إليه من الحكمة، وبما وهبه من رأي ونظر سديد حكيم. كما أفتى فيما استفتى فيه.

والحكمة في تولي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القضاء بنفسه ظاهرة، وهي أن العدل أساس العمران، ولا

ارتقاء ولا رجاء لتأليف أمة وتعاضدها وتكوين وحدتها إلا بالعدل والأمن على الحقوق، لهذا كان عليه الصلاة والسلام يتولى القضاء بنفسه تأليفا لهم، وتدريبا على إقامة العدل، وتنبيها لهم أن يكونوا قوامين بالقسط، وأن يلي قضاءهم من يكون أفضلهم وأنزههم وأعلمهم.

نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في القضاء:

ونجمل فيما يلي أهم ما عمل به رسول الله ﷺ، أو أقره من طرق الإثبات في القضاء، وهي: الإقرار، البينة، اليمين، القسامة، القيافة، القرينة، القرعة، ونحوها، وكان يقول: «البينة على المدعي واليمين على من أنكر».

وكان يترافع إليه المتخاصمان فيسمع كلام كل منهما، ثم يقضي على نحو ما يسمع، اعتمادا على ظاهر البينة، ودلائل الإثبات أو النفي، فكان يحكم بالظاهر، وكان قضاؤه ﷺ فيما لم ينزل عليه فيه شيء اجتهادا منه، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾. كما يشهد له من السنة المطهرة حديث أم سلمة رضي الله عنها الذي تقدم بتمامه، وفيه قوله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، وإني أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا ظلما بقوله فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار».

أقضية النبي صلى الله عليه وسلم:

خلال السنوات العشر الكريمة التي عاشها رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، صدرت عنه أقضية غير قليلة في الوقائع التي ترافع الناس فيها إليه، وقد أفردت تلك الأقضية النبوية بالتأليف من كثير من العلماء جزاهم الله خيرا. ونكتفي بذكر نموذج واحد منها لضيق المقام.

نموذج من أقضية رسول الله ﷺ:

روى مسلم في «صحيحه» في كتاب الحدود (١١:١٨٧) عن عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها: أن قريشا أهمهم شأن المخزومية، التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم بها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله، فأتي بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي – وقت اجتماع الناس بعد العصر – قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها.

قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت

وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإن ما تضمنه هذا الحديث الشريف من القضاء النبوي الكريم، ومن بيان المبدأ الإسلامي العادل السامي العظيم، وهو المساواة بين الناس ضعيفهم وقويهم، وشريفهم ومشروفهم: لتعجز البشرية أن تأتي في قضائها بمثله في غير ظل الإسلام، وليس هو حادثة فريدة في بابها؛ بل إن له أمثالا وأمثالا في أقضية الرسول الكريم وأقضية أصحابه وأقضية قضاة العدل من علماء الإسلام.

أشهر القضاة في عهد الرسول ﷺ:

وقد استقضى رسول الله ﷺ في حياته الشريفة طائفة من أصحابه سادة هذه الأمة وعلمائها، فقاموا بالقضاء في حضرته، وقاموا به بعيدين عنه حيث وجههم إليه من بلدان الإسلام الجديد.

ومن الذين قضوا بحضرته: عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر الجهني، وحذيفة بن اليمان، وعمر بن الخطاب، ومعقل بن يسار رضي الله عنهم، ويضيق المقام عن ذكر أخبارهم الدالة على ذلك.

وقد كان هذا الاستقضاء من رسول الله ﷺ لهم في حضرته الشريفة بمنزلة التمرين العملي على النهوض بأداء القضاء على وجهه، وليشهدهم عليه الصلاة والسلام وهم يفصلون في الخصومات بين الناس – بعد أن شهدوه ﷺ يفصل فيها مرات ومرات – فيسددهم إن أخطؤوا، ويقرهم إذا أصابوا، فكان ذلك تمرينا واختبارا لهم في آن واحد.

ومن الذين قضوا بعيدين عن حضرته الشريفة عليه الصلاة والسلام: علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وعتاب بن أسيد، وعمرو بن حزم الأنصاري وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهم، ولا يتسع المجال لذكر نماذج من أقضيتهم.

ويجب علينا ونحن نتحدث عن تاريخ القضاء في العهد النبوي، أن ننافح بالحق عن هذا الصحابي الجليل قاضي النبي ﷺ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، واسمه عبد الله بن قيس، ونعرف به بعض الشيء، فقد أشاع بعض الضعفة من أهل التاريخ والأدب والأخبار، ما يصوره كأنه من المغفلين البله، حتى أضاع الخلافة والحق من أهله، وجر على المسلمين ببلاهته – في زعمهم وحاشاه – الويلات والمآسي.

فنقول وبالله التوفيق:

إن رجلا اختاره رسول الله ﷺ سيد البشر والأنبياء والرسل، ليكون قاضيا وأميرا على قطر واسع عريض وهو اليمن، لا يمكن أن يكون كما زعمه أولئك الضعفة الغالطون، فإن هذا الذي زعموه ينقضه من أساسه – ولا أساس له – تولية رسول الله ﷺ لأبي موسى على ذلك القطر السعيد بالإسلام الجديد، ورسول الله سيد الرجال وأعرفهم بأفضل الرجال فطانة وزكانة وحزمًا وعلما، وهو ﷺ محفوظ أن يضع الولاية والأمانة في غير موضعها، أو يكلها إلى غير أهلها، وهو الذي يقول كما روى البخاري في «صحيحه»: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

بقية إشراقة: المنشورة على ص ١١٢

وهـذه حـال القنـوات «الملتزمـة» -، وأمـا غـير الملتزمة فحدث ولا حرج - فهي تكثف نشاطاتها، وتحشد كل طاقاتها، وترص صفوفها، وتجلب بخيلها ورجلها من خلال إمكانيات ضخمة واستعدادات واسعة النطاق، وتشهد استنفارا؛ ولكن لأجل أي شيء يا ترى؟ لشغل المسلمين في الطاعات والعبادات، وكسب الخيرات والأجور ليوم النشور؟ لا والله، وإنما همها صرف الناس عن كل ذلك إلى الأغاني الفاجرة والأفلام الماجنة، والرقصات الهابطة، والعفن والقاذورات. فكم نرى أناسًا يفطرون على نعمة الله تعالى وعيونهم عالقة بهذا السيل العارم من البرامج الفكاهية و المسلسلات الهزلية التي تهزأ بالشريعة، وتنال من الكرامة والعز، وتهتك ستر الفضيلة وتنشر الرذيلة من وراء ستار حرية الرأي والتفكير.

وإن كثيرًا من المسلمين يتسمرون أمام هذه القنوات والشاشات في غفلةٍ شنيعةٍ، وإثم و عصيان، وإقبال على المهلكات والموبقات، وإعراض عن الأجر والثواب والصالح من الأعمال. و ما فائدة هذه البرامج الفاضحة وقصص الغزل والحب التي تقدمها ليل نهار وخاصة في رمضان الفضيل؟ وصدق الله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧]، وهؤلاء يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان:٦].

يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: «اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني، و (لَهْوَ الْحَدِيثِ) نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات و المضاحيك وفضول الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان، ونحو الغناء وتعلم الموسيقى، وما أشبه ذلك. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان يتجر إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم، فيحدث بها قريشًا، ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد

وثمود، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم و بهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن. وقيل: كان يشتري المغنيات، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، و يقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه».

فهذه الآية الكريمة كأنها تدعو وسائل الإعلام وأصحابها ومقدمي برامجها حتى نحن المشاهدين والمتفرجين أيضًا جهرًا وعلنًا إلى التفكير والنظر في ممارساتنا ليل نهار، وإلى محاسبة نفوسنا قبل أن نحاسبَ يوم القيامة. وإن أحدنا لو نال منه أحد أو دنس عرضه أو شوه سمعته لم يملك نفسه، ولم يصبر على ذلك. ونحن – المسلمين اليوم – نرى كل يوم من رمضان وليله تنال وسائل الإعلام المختلفة بشكل عام من هذا الشهر الفضيل، وتدنس قداسته، وتنتهك حرمته ثم لايتمعر وجهه على ما تبثه هذه الوسائل الإعلامية من برامج ومسلسلات تعارض الشرع الإسلامي على طول الخط وعرضه، وتحبب إلى الشباب المسلم الرذيلة والفساد والعري والسفور، و الاستهزاء بالدين والسخرية من شعائره ومعالمه والمنكرات بشكل عام، وتكرِّه إليه الفضيلة و العفاف والطهر. هل ترى أن ما يبثه هذه الوسائل ينسجم مع شهر الصيام والعمل والخيرات؟ وهل تعين على تحقيق التقوى والخير والصلاح ومضاعفة الأجر والثواب، والاغتنام بموسم الخيرات هذا ؟ و صدق الله مولانا العظيم إذ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩].

هددت هذه الآية الكريمة مَن فعل ذلك؛ لأنه يغش إخوانه، ويحب الشر والفتنة لهم، ويتجرأ على أعراضهم. فإذا كانت هذه العقوبة الأليمة على مجرد الحب لشيوع الفاحشة في صفوف المسلمين واستحلائه بالقلب، فما ظنك بما هو أفظع وأشد منه، وهو إظهاره ونقله، وبثه و إشاعته، بغض النظر عن الفاحشة هل صدرت أم لا؟

استنفار ولكن .....

مع دخول شهر رمضان وقبله تشهد المجتمعات الإسلامية عبر العالم تحركات ونشاطات واسعة النطاق، وبرامج متنوعة، ودعايات وإعلانات عن السلع الغذائية كأن شهر الطعام على وشك الدخول، لا شهر رمضان شهر الصيام والقيام والعبادات.

فعلى مستوى شراء السلع الغذائية تجد إقبالًا غير ملحوظ على المحلات و السوبرماركتات، وتعدى الإسراف في شراء الحاجيات وغير الحاجيات الأغنياء والأثرياء إلى غالبية العوائل من مختلف الطبقات، وحتى الفقيرة منها، وبغض النظر عن الإمكانية الشرائية لها وميزانيتها الطبيعية.

ولا تعدم فئة من المسلمين قد أصبح شهر رمضان عندهم شهر الأكل والكسل والتسوق و السهر على اللغو واللهو الحرام والمسلسلات والأفلام، فكم منهم لايهمه في آخر الليل إلا تناول السحور ثم اللجوء إلى المضاجع والسبات العميق حتى الظهر أو ما بعد الظهر، فلا صلاة ولا تلاوة ولا عبادة.

وفي هذا الشهر الفضيل – شهر العبادة والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه – تشاهد سباقًا محمومًا من القنوات الفضائية بتقديم المسلسلات والأفلام الماجنة، ورصيدها الإعلامي و برامجها الساقطة التي يزدحم بها الفضاء؛ بل يتخم من وفرتها، ولا هم لها إلا نشر الفتن و الرذائل وتحريك الغرائز، ودس السم في العسل، وبث الشبهات، وكل ما ينافي الأخلاق والعقائد، ينعق به غانية أو ناعق ينعق بما لايسمع إلا دعاءً ونداءً ... وفتنة وهراء بكل وقاحة ولامبالاة، و دون أن يقف عند حدٍّ أو يردعه رادع من إيمان أو ضمير عن تصوير الحق في صورة الباطل، و الباطل في صورة الحق مما لا يعلم إلا الله تعالى مدى أضراره على فئة الشباب والشابات من المسلمين.

(البقية على ص ١١٠)

أبو عائض القاسمي المباركفوري